

أعلام العرب

٩٠

عمر جي زريان

بقلم

محمد عبدالغنى حسن

الهيئة
المصرية العامة
للتأليف والنشر

أعلام العرب

جرجى زريان

بقلم

محمد عبد الغنى حسن

المدينة المنورة العامة للتأليف والنشر

١٩٧٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

يدخل جرجي زيدان سلسلة « أعلام العرب » من أبواب
فسيحة كثيرة • وكل باب فيها يفتح على مصراعيه ليستقبل الرجل
الذي كانت حياته كلها احتساباً لخدمة العرب وتاريخ الاسلام •
فجرجي زيدان عربي بأصله مهما انقسمت العروبة الى أصليين
كبيرين من عدنان وقحطان •

وجرجي زيدان عربي بوطنه مهما توزعت العروبة - بفعل
عوامل كثيرة - بين أمصار وبلدان ، ومهما انقسم الوطن العربي
الكبير الى عدة أوطان ...

وجرجى زيدان عربى بلغته الشريفة ، لغة القرآن ، التى
توحد بين العرب ، وتربط بين قلوبهم جميعا مهما اختلفت بهم
الأديان

ولقد كتب جرجى زيدان عن العرب لأنهم أهله وقيله ،
وكتب عن العربية لأنها لغته ولسانه ، وكتب عن آداب العرب
وأفكارهم ، وعن الاسلام وتمدنه • وكان الرجل حسن النية •
سليم القصد ، على الرغم مما وجه اليه من انتقاد •

ولجرجى زيدان مكان الرواد فى تاريخ العرب ، وتاريخ
الحضارة الإسلامية ، والروايات التاريخية ، وهى ميادين كلها أبكار ،
وروضات كلها أنف ، لم يرتدها أحد قبله ، فارتادها الرجل ،
وأخذ فيها عن مناهج الغربيين ، وسلك طرائقهم ، ولكنه توسع فيها
بما وقع له من مصادر لم تقع لهم ، وقدمها الى قراء العربية فى كل
أرض تقرأ لغة القرآن ، ونشرها فى شعبية واسعة محبوبة بما أتيح
له من شعبية مجلة « الهلال » التى أنشأها سنة ١٨٩٢ ، والتى جعلها
منبرا لهذه الدراسات الأدبية والتاريخية واللغوية المتخصصة ،
فأزال عنها صفة التخصص التى قد تحجب أمثال هذه المباحث عن
طلابها والمتفنيين بها • وجعلها قريبة المنال من القراء العرب الذين
كانت معداتهم الضعيفة لا تقوى يومئذ على هضم هذه الموضوعات •

وقد جعل الرجل هذه النزعة الشعبية هدف رسالته ، حتى

احتال على تاريخ العرب والأسلام ، فأراد أن يحويه الى العرب
والمسلمين ، وأن يسهل عليهم تناوله ، فكتبه على طريقة قصصية
جذابة ، لا تجور على التاريخ ولا تطمس حقائقه من ناحية ،
ولا تسرف في التاريخ الى حد الجفاف من ناحية أخرى . وارتضى
لهذا الغرض الشعبي أسلوبا فريدا ، سهلا ، واضحا ، مألوف
الألفاظ ، بعيدا عن زخرف اللفظ ، وفخامة العبارة ، قريبا من
البيان والأبلاغ الذي فيه للناس بيان ..

ومن هنا راجت كتب زيدان ومباحثه ودراساته المتخصصة
رواج رواياته التاريخية المسلية المفيدة . ووجد الناس فيها لعهد
شيئا جديدا لم يألوه . . . فكثر الطلب لها ، والاقبال عليها ، كما
دارت حولها المناقشات والانتقادات ، فلم يحط هذا من قدرها ،
ولا ذهب بفضل صاحبها ، بل كان دليل الحيوية فيها ، والتقدير لها ،
لأن اغفال نقد الكتب هو نوع من الإهمال ، بل الإهانة لأصحابها
ولقد شغلت نفسى بجرجى زيدان ، أو شغلنى هو - زمنا
ليس بالقليل . أقرأ له ، وأفيد من مؤلفاته وآرائه فى تاريخ الأدب
العربى والتمدن الإسلامى ، وأجعل كتبه من أهم مصادرى فيما
أعانيه من بحث ، أو أصدره من دراسة . ثم زاد الشغف به الى
الشغف بسيرته ، والاشتغال بتاريخ حياته . ففى سيرته نموذج رائع
للعصامية التى تقفز بصاحبها من الفقر والحرمان ، الى النباهة ورفعة
الشان .

ومن ثم أخذت أجمع كل ما قيل عنه ، وما لا يزال يقال ،
وأخذت أقيم هيكلًا لسيرته ، وأرسم مخططًا لترجمته وأخذت أجمع
المادة الضرورية لذلك ، أملًا أن يعيننى الزمان ، وأن تسعفنى
الأيام ، بأن أسوى فيه كتابًا كاملاً •

وما كادت رغبة القائمين على النشر فى « الهيئة العامة للتأليف
والنشر » تلتقى مع رغبتى ، حتى أدركت أن يدا من الانصاف
الالهى قد امتدت الى هذا الرجل الذى يستحق الانصاف ، بعد أن
خض الزمان به عليه زمانا ...

وأرجو أن يكون اختيارى لهذه المهمة - على ما فيه من تقدير
كریم مشكور - فيه تحقيق لبعض الانصاف الذى كنت أرجوه لهذا
العالم الرائد •

فاذا أصابنى بعض التوفيق فى هذه السيرة ، فهو فضل من الله
يستحق الحمد • وان كانت الأخرى فهو قصور منى يستوجب
العذر ...

ويكفينى أننى مهدت السيل ، وفتقت مسائل للبحث فى سيرة
هذا العلم الجليل • والله يهين لنا من أمرنا رشدا •

محمد عبد الغنى حسن

القاهرة

الحياة فى سطور

♦ يمثل جرجى زيدان العصامية بأجلى معانيها ، فهو من أسرة لبنانية رقيقة الحال كادحة كانت تعيش فى قرية « عين عنوب » اللبنانية ، ثم حدثت ظروف اضطرت جدته لأبيه الى الهجرة الى بيروت العاصمة مع بنتها وابنيها ، وأكبرهم حبيب زيدان ، والد جرجى زيدان .

وكان والد جرجى زيدان أميا ، لم يتسع له السعى فى طلب العيش للذهاب الى المدرسة ، ففتح مطعما صغيرا كان يتردد عليه طائفة من رجال الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية التى كانت فى أول عهد انشائها سنة ١٨٦٦ على يد جماعة من المرسلين الأمريكيين .

وفى ظل هذه الظروف المعيشية الضئيلة ولد جرجى زيدان فى

١٤ ديسمبر « كانون الأول » سنة ١٨٦١ ، ولما بلغ الصبي من العمر خمس سنين أرسله أبوه الى مدرسة متواضعة كان يديرها قسيس يدعى المعلم ألياس شفيق ، ولم يكن هدف الوالد أن يمضي بابه في التعليم لغايته حبا للعلم ، ولكن الحاجة هي التي جعلته يدخله المدرسة ليتعلم الكتابة والقراءة والحساب حتى يستطيع أن يساعد والده بإدارة المطعم وضبط حساباته . ثم انتقل الى مدرسة الشوام فتعلم فيها الفرنسية ، وتركها بعد ذلك الى مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود الطويل فتعلم فيها الانجليزية .

واضطر الى ترك التعلم بالمدارس ومساعدة والده في المطعم ، ولكن واندته كانت تكره له العمل في المطاعم لما فيه من رائحة الزفر والانحباس في الدكان ليل نهار ، فأذعن الأب لأرادتها مكرها ، فاختاروا له تعلم صناعة الأحذية وكانت سنه يومئذ اثني عشر عاما فمارسها عامين حتى قارب من إتقانها ، ولكنه تركها لأن ملازمة الجلوس على الكرسي لم تلائم صحته .

وبعد تردد بين العمل في المطعم والبيع في محل للأقمشة كان يقرأ ويطلع الكتب والمجلات ، ويأخذ المعارف بنهم . فعرفه أكثر المتخرجين في الكلية الأمريكية وأكثر أدباء بيروت ، ورجال الصحافة فيها ، مما سهل له الانتظام في سلك « جمعية شمس البر » التي أنشئت ببيروت سنة ١٨٦٩ ، وكانت فرعا لجمعية الشبان المسيحيين في انجلترا . ورأى نفسه في هذه الجماعة رفيقا لجماعة

من أعلام سورية ولبنان ، منهم الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، وسليم البستاني ، وبطرس البستاني ، ويوسف الأسير (١) وغيرهم ، وكان هؤلاء يدعونهم الى المشاركة بالحضور في احتفالات الكلية الأمريكية - وخاصة حفلات التخرج - فكان يسمع الخطب ، ويخرج حزينا لأنه يتمنى أن يقف مثل هذه المواقف ، ويجد من الحضور اصغاء لما يقول . . .

♦ وفي سنة ١٨٨١ صمم نهائيا على أن يترك العمل ويلتحق بالكلية الأمريكية طالبا في مدرسة الطب بها ، وكان الدخول بمدرسة الطب يحتاج الى امتحان في بعض المواد العلمية الأعدادية ، وأشار عليه بعض أصحابه بأن الطريق طويل ، والاستعداد لامتحان الدخول بالغ الصعوبة ، ولكن ذلك لم يثن عزمه ، ولم يقل من حد أرادته ، فتعلم مواد الامتحان على أحد أصدقائه فيما لا يبلغ ثلاثة أشهر ، ودخل الامتحان فأحرز قصب السبق ، ودخل المدرسة الطبية وقضى فيها عاما كاملا . وفي أوائل العام الثاني حدث اضطراب في مدرسة الطب بسبب تدريس المواد بالعربية بدلا من الإنجليزية . وانجلى الحادث عن مغادرة الطلبة جميعا وتركهم المدرسة الطبية ، وفيهم المترجم له ، وانصرف الى الامتحان في علوم

(١) الشيخ يوسف الأسير من أعلام اللغة والفقه في سورية ، تعلم في الأزهر ، وقام بالشريعة والافتاء في سورية ، وتوفي سنة ١٨٨٦ .

الصيدلة ، فامتحنته لجنة خاصة برئاسة الكولونيل مراد بك
حكيمباشي المعسكر •

• وفي سنة ١٨٨٣ اعتمر الهجرة الى مصر نيتهم فيها دراسة
الطب ، وكان عيسى باشا حمدي ناظرا لمدرسة الطب المصرية
يومئذ ، ولم يكن مع المترجم له من المال ما يكفي نفقات السفر ،
فأقرضه جار له بيروت ستة جنيهات ، على أن يردّها اليه حينما
يسر الله عليه •

وفي يوم من أكتوبر سنة ١٨٨٣ وصلت به الباخرة الى ثغر
الأسكندرية ، وكان مشهد المدينة محزنا كثيرا بما حدث فيها من آثار
الحملة الأنجليزية عقب الثورة العربية • ولم يمكث بالأسكندرية
ألا أياما غادرها الى القاهرة ميمما شطر مدرسة الطب ، ولكن طول
مدة الدراسة بها قد صرفه عن عزمه ، فظل يبحث عن عمل ، حتى
اشتغل محررا في صحيفة « الزمان » اليومية التي كان يملكها
ويديرها علكسان صرافيان (١) ، وكانت الجريدة اليومية الوحيدة
في القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزي صحافة ذلك العهد •
ومكث صاحبنا في الزمان عاما وبعض عام •

• وفي سنة ١٨٨٤ رافق الحملة الأنجليزية النيلية الى
السودان مترجما لها • وكانت هذه الحملة لأنقذاذ غوردون عقب

(١) هو أرمني اشتغل بالصحافة في مصر ، ثم تركها بعد ذلك الى قبرص

فتة المهدي • وقد شارك في المتاعب التي لقيتها الحملة ، ووصف بعضها في كتابه « تاريخ مصر الحديث » • وكانت مدة رحلته الى السودان عشرة أشهر •

• وفي سنة ١٨٨٥ سافر الى بيروت • وكان المجمع العلمي الشرقي فيها حديث عهد بالأشياء ، فقد أنشئ سنة ١٨٨٢ للبحث في العلوم والصناعات والأفاده منهما بما يعود على البلاد بالخير والرخاء • وكان من أول المفكرين في أنشائه الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والدكتور فاندليك ، وموصلي باشا ، وانضم اليه بعد ذلك جماعة منهم الدكتور ورتبات ، والدكتور أسكندر بارودي ، وسليم البستاني ، والشيخ ابراهيم اليازجي وغيرهم • فرأوا أن يكرموا جرجي زيدان بتقرير ضمه الى جماعتهم • وفي خلال اقامته بيروت هذه المرة تعلم اللغتين العبرية والسريانية • وكان من ثمرة هذا أنه ألف كتابه « الفلسفة اللغوية » ، أو « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » الذي ظهرت أولى طبعاته في بيروت سنة ١٨٨٦ • وكان من أثر ذلك أن عينه « المجمع الآسيوي الملكي » عضوا عاملا فيه • وكان هذا التعين تكريما للرجل حينما بعث الى هذا المجمع نسخة من كتاب « الفلسفة اللغوية » الذي بعث بنسخ منه الى الجامعات والجمعيات العلمية في العالم كله •

• وفي سنة ١٨٨٦ زار المترجم له عاصمة بلاد الأنجليز ،

وتردد على المتحف البريطاني وغيره من المكتبات ومجامع العلم .
ولما عاد في شتاء العام نفسه الى مصر طلبت اليه ادارة المقتطف أن
يتولى ادارة أعمالها ، ففعل ، وقضى في المقتطف عاما ونصف عام لم
يشترك في التحرير فيه الا بمقالة صغيرة واجدة هي ختام السنة
الحادية عشرة ، ومعنى هذا أن عمله في مجلة المقتطف كان قاصرا
على الإدارة لا التحرير . وقد صححنا وهم القائلين بأنه اشترك
في التحرير ، بناء على ما ذكره الدكتور يعقوب صروف نفسه في
خلال ترجمته لجرجى زيدان عقب وفاته في عدد سبتمبر سنة
١٩١٤ من مجلة المقتطف (١) .

واستقال من المقتطف سنة ١٨٨٨ ليشتغل بالكتابة والتأليف ،
وفي هذه الفترة أصدر كتابه « تاريخ مصر الحديث » .
• وفي سنة ١٨٨٩ انتدبه المدرسة العيديدية الكبرى لتدريس
اللغة العربية وآدابها فيها ، وكان مستوى العربية في هذه المدرسة
عاليا ، ولا غرو فقد كان صاحبها روفائيل عييد السوري من المهتمين
باللغة العربية فوق اهتمامه بالطباعة ، وتولى زيدان التدريس في
المدرسة العيديدية لمدة عامين ألف خلالها رواية « المملوك الشارد »
• وفي سنة ١٨٩١ أنشأ جرجى زيدان مطبعة التأليف
مشتركا مع نجيب مئري المؤسس الأول لدار المعارف . وبعد سنة

(١) انظر دراسة لنا عن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » في « تراث
الانسانية » المجلد ٤ عدد ١٠ .

انفضت الشركة بينهما ، واحتفظ جرجى زيدان بالمطبعة لنفسه
وأسماءها مطبعة الهلال ، على حين قام نجيب مترى بأنشاء مطبعة
مستقلة باسمه أسمائها مطبعة المعارف •

• وفى سنة ١٨٩٢ أصدر مجلة الهلال • وستحدث عنها
بأسهاب فى فصل قادم • وقد وصفها صاحب « مرآة العصر » بقوله:
(وفى شهرة هذه المجلة ما يغنى عن الوصف ، وقد دخلت الآن
- يعنى سنة ١٨٩٧ - فى سنتها السادسة ، ونالت من الشهرة وسعة
الانتشار ما لم يسبق له مثل فى العالم العربى ••• وقد اشتهر
مشربها بالاعتدال ، وانشاؤها بالسهولة والوضوح مع اجتناب
الركاكة ، واستمرت لهجتها بالصدق والاخلاص ، وعرف الهلال
بحسن الاختيار فى المواضيع على اختلافها) (١) • وكان زيدان
يقوم بتحريرها بنفسه ، الى أن كبر ولده « أميل » وصار مساعده
فى تحريرها •

ولم يشغل « الهلال » صاحبه عن التأليف الثمر الضخم
المفيد • فقد أصدر أكثر مؤلفاته ورواياته التاريخية وهو قائم
بتحرير الهلال ، لا تعارض بين الاثنين ، ولا تناقض بين العاملين ،
فكلاهما متم لصاحبه ، ومات بين أوراقه وكتبه فى دار الهلال ميتة
البطل فى الميدان •

وكانت وفاته فى شهر يوليو سنة ١٩١٤ •

(١) مرآة العصر : ص ٤٦٤ •

صور من الطفولة والمدرسة

تواكب طفولة جرجى زيدان العقد السابع وشطرا من العقد الثامن من القرن التاسع عشر • وهى طفولة قضاها المترجم له فى لبنان ، أو ان شئت الدقة فى بيروت • ولم يكن لبنان فى ذلك العهد بأسعد حظا من مصر أو بقية البلاد العربية ، فالظروف الاجتماعية هناك وهنا متشابهة • لقد كان والد الطفل جرجى صاحب دكان ، ولكنه كان أميا • فاضطر أن يتعلم كتابة الأعداد حتى يستطيع ضبط حساباته ! أما أسماء المدينين من عملائه فكان يتركها لقريحته ، ثم استعان على ذلك ببعض عمال ممن يلمون بالقراءة والكتابة ، ثم اضطرته الحاجة الى أن يلحق ولده جرجى بمدرسة صغيرة وهو فى الخامسة من عمره ، على أمل أن يساعده ...

ويعصور لنا جرجى زيدان في مذكراته الصريحة (١) الصادرة
صورا طريفة من معلمه الأول ، ومدرسته الأولى ، وأداة العقاب
التي كانت مستعملة في ذلك العهد ، وهي « الفلقة » التي كانت
تشابه في كل قطر عربي ، بل كان اسمها هناك كاسمها هنا .

وكان التعليم في عهد طفولة زيدان مقصورا على رجال
الكنيسة وحدهم . كأنما هو احتكار لا مفر منه . وأكثر الكهنة في
ذلك الزمان - بل كلهم ان شئت الدقة - كانوا أشياء متعلمين .
وما أظرف جرجى زيدان وهو يصف معلمه الأول « الياس » -
قسيس الأسرة - بأنه لا يكاد يحسن القراءة في الأنجيل :

ولم تكن المدرسة التي تلقى فيها جرجى زيدان دروس الهجاء
الأولى شيئا مثل مدارسنا اليوم أو قرية منها . لقد كانت أبعد
ما تكون عن ذلك . ولعل فيها كثيرا من ملامح « الكتائب » التي
كانت في مدائن مصر وقراها الى عهد غير بعيد

وندع المترجم له يصف مدرسته الأولى ويصورها بقلمه قائلا :
(وكانت مدرسته - يعني المعلم الياس - عبارة عن قبو واسع . في
بناية ليعقوب ثابت بجوار مدرسة اليسوعيين الآن . ثم صار هذا
القبو فرنا بعد ذلك ، فكان أشبه بالزريبة منه بالمدرسة : يجتمع فيه

(١) أشار الى هذه المذكرات محرر مادة زيدان في دائرة المعارف
الاسلامية ، والاستاذ المرحوم طاهر الطناحي ، ونشر الهلال بعض قصول منها .

أبناء أهل الحى من سن الرابعة الى العاشرة، ذكورا وإناثا ، يجلسون على حصير أو حصر بسطها فى أرض القبر ، ويجلس هو فى صدر القاعة على طراحة ، وبين يديه صندوق صغير « باشتخته » ، يضع عليه كتابه ، ودواته ، وأقلامه ، ويجمع الى يمينه عدة قضبان تختلف طولا ودقة ، يستخدم كلا منها فى محله حسب سن الولد وجنسه وبعده منه أو قربه ؟)

ان هذه الصورة الطريفة المضحكة للمعلم ومدرسته فى لبنان فى القرن الماضى تذكرنا بصورة طريفة أخرى « لسيدنا » وكتابته فى مصر ، صورها لنا الدكتور طه حسين فى كتابه « الأيام » حيث رأى نفسه فى ضحى يوم من أيام طفولته فى الصعيد جالسا على الأرض بين يدي « سيدنا » ومن حوله طائفة من النعال ، كان يعيث ببعضها ، وهو يذكر الرقع التى ألصقت بها من طول ما أبلاها الاستعمال ! وكان « سيدنا » جالسا على دكة من الخشب صغيرة ، ليست بالعالية ولا المنخفضة ، قد وضعت على يمين الداخل ، وقد خلع عباءته وطواها كالخدة ، ووضعها عن يمينه ، ثم خلع نعله كذلك متربعا على دكة ...

أما القراءة والتسميع فكانت تشابه هناك فى لبنان ، وهنا فى مصر ، كما كانت تشابه فى كل بلد عربى . وفى كتائب لبنان تقرأ المزامير ، كما يقرأ القرآن فى مصر ، والقراءة بصوت عال لا محالة ، وهو ما يسمنى « بالتسميع » ، وربما قرأ اثنان أو ثلاثة

من التلاميذ معا في وقت واحد ، فتختلط أصواتهم ، ويرتفع ضجيجهم ، وكلما اشتد الضجيج انحدر رأس المعلم على صدره من النوم ، وراح مستغرقا فيه . فاذا ما تعب رأسه من طول تدليه ،لقى به على الحائط ورفع قدميه على الصندوق - أو التخته - التي بين يديه . فاذا ما هزته هزة عنيفة استيقظ وفتح عينيه وصاح في برود : اسكتوا يا أولاد ! فاذا لم يستجيبوا لأمره تحرك فوق طراحتة ، وتناول واحدة من العصي أو القضبان التي بجانبه ، وضرب بها أقرب الأولاد اليه حتى ولو لم يكن مذنباً ، كأنه ضربات المنايا تخبط خبط عشواء ! فاذا ما صاح المضروب من الوجع ضحك بقية الأولاد ، فيغتاظ المعلم ويتناول عصا ثانية طويلة فيضرب بها تلميذا بعيداً منه . (وقد يهم بالنهوض عند مسيس الحاجة ، ويقبض على المتمرد من الأولاد ويلقيه على الأرض ، ويستعين بخادم أو غلام كبير على وضع الفلقة في قدمي المتمرد ، أو وضع قدميه في الفلق ، ثم يضربه على أخمصيه عشر ضربات ، أو عشرين أو أكثر أو أقل ، على ما يترامى له .)

ويصور لنا جرجي زيدان الفلقة ، ويرى أن في ذلك تسجيلاً لآلة للعقوبة المدرسية زالت من المدن المتعدنة . ولا بأس أن نسجل هنا وصف صاحبنا لها حتى يلم بها الذين لم يروها ، أو لم يذوقوا أوجاعها من شبابتنا الجديد ، فواقهم الله بذلك من عذاب أليم ، يقول مؤرخنا : (والفلق أداة للقصاص ... وهو عبارة عن عصا غليظة

قد شد اليها حبل يتصل طرفاه بطرفيها ، ويبقى وسطه مرخيا ،
فيدخلون قدمي الغلام بين الحبل والعصا ، ويدفرون العصا ، فيلتف
ما زاد من الحبل عليها ، وتتحصر القدمان ، فيرفعونهما والغلام
مستلق على ظهره ، فيمسك أحد الحضور طرفي الفلق ، ويأخذ
المعلم بالضرب به على الأخصص (...) .

وعجيب جدا أن يفلت جرجي زيدان من عذاب « الفلقة » ،
فلا يقع ضحية لها ، ولا يعرف طعمها ، على كثرة ما شاهد من مآسي
استعمالها في المدرسة الأولى . ويتواضع زيدان فيعترف بأن نجاته
من شر الفلقة وتجنبه مذاقها لم يكن لفضيلة فيه ! ولكنه كان كثير
الحجل ، شديد الخوف من العقاب ، محبا للابتعاد عن أسباب
الشمحاء . وقد غلبت عليه هذه الصفات منذ طفولته المبكرة ، فكان
يبتعد جهد طاقته عن كل ما يثير غضب المعلم عليه أو يبعثه على
انتهازه وضربه ...

ان هذا الحياء والحجل ظل ملازما لصاحبنا طول حياته ، وقد
حبب اليه كل من اتصل به أو لاقاه من قريب .

وما نزال نذكر في كتابينا شهادة « سيدنا » للأهل والأقارب
بأننا قد ختمنا القرآن ، أو حفظنا شطراً منه كبيراً أو صغيراً ، وأن
الواحد منا صار « يفك الخط » أي يقرأ في سهولة ويسر . لقد
كانت الصورة متشابهة مع مدارس لبنان . فقد قال المعلم لوالد
جرجي زيدان : « ان جرجي قد ختم درسه ، وصار يفك

الحرف ، • وكان سرور الوالد بذلك فوق كل تقدير • ولا تفوت
اللمحة الذكية جرجى زيدان فيعلق على الحادثة بقوله : (ومعنى
ختم القراءة أنى صرت أقرأ بالمزامير جيداً ، وهذا صحيح • كنت
أقرأها جيداً ، لكننى لم أكن أفهم ما أقرأ !!) •

والى هنا كان الصبى جرجى قد تعلم نصف القضية ، وفاته
نصفها الآخر ! لقد تعلم القراءة ، ولكنه لم يتعلم الكتابة والحساب
والعدد • انه قارىء معطل ؟ يقرأ ، وقد لا يفهم ما يقرأه ، ثم
لا يدري بعد ذلك من أمور الكتابة والحساب شيئاً ! فماذا يصنع به
والده فى الدكان ؟ انه لا غناء فيه ، ولا فائدة منه ! انه لا يستطيع
ولا يعرف أن يقيد أسماء العملاء ، ولا يعرف أن يقيد أمام أسمائهم
ما على كل واحد منهم من ديون • فاضطر أبوه الى نقله بمدرسة
كانت قد افتتحت حديثاً ببيروت تعرف « بمدرسة الشوام » •
والشوام - كما هو العرف هناك - هم أهل دمشق • وكان مؤسسو
هذه المدرسة الجديدة جماعة من أدباء دمشق ، ترحوا الى بيروت
لينشروا فيها العلم ! ويعترف صاحبنا بأنه فى هذه المدرسة تعلم
مبادئ الحساب ، والنحو ، وبدأ يفهم ، وتفتحت عينه على الحياة •

وعلى حين كانت الفوضى والعقاب وسوء المكان تسود مدرسة
المعلم الياس ، كان النظام والحزم وصرامة القوانين تسود « مدرسة
الشوام » • ولم يكن هناك قانون كما يتبادر الى الذهن ، ولكنها
ارادة الناظر أو كبير المعلمين الذى كان اسمه « ظاهر خير الله

الشويرى » (وكان شديد اللهجة ، عظيم الهية ، وأصله بناء ، وفيه ذكاء فتعلم وتقف على نفسه ، وصار معلما براتب حسن ، وكان التلامذة يهابونه ويخافون صوته) • وظاهر خير الله هذا هو والد اللغوى الشاعر الناقد أمين ظاهر خير الله الذى كان يكتب فى المقتطف ، والعرفان ، والمسرة ، ودارت بينه وبين الأب أنستاس مارى الكرملى مجادلات لغوية شديدة نشرها فى كتابه « البرهان الجلى ، على علم الأب الكرملى ، • على أن الأب نفسه الذى كان بناء ، فمعلما ، اشتغل باللغة والنحو والصرف فبرع فيها ، وله كتاب « المباحث المحصنات ، فى أحوال الصفات ، وهو أوسع مؤلف فى بحث أحوال الصفات فى اللغة العربية •

ولما ترك المعلم ظاهر نظارة مدرسة الشوام وأنشأ لنفسه مدرسة خاصة ترك جرجى زيدان مدرسة الشوام ، والتحق بمدرسة معلمه الذى كان شديد العناية بالتعليم ، وكانت تعلم اللغة العربية والفرنسية - فوق الاهتمام بدروس الحساب - فقضى صاحبنا فيها سنتين أخذ فى نهايتهما يلتذ بالعلم ويتفهمه ، ولم يكن له هم غيره • ولقد جمع زيدان فى طفولته وصباه بالمدارس الثلاث التى تنقل فيها ، الى الحجل والحياء اللذين لازماه ، نفورا من اللعب ومشاركة التلاميذ فى متاشطهم البدنية ، لأنه - كما يقول - لم يكن ميالا الى اللهو مطلقا ، وكان يعد ذلك نقصا فيه ، ولكنه لم يستطع أن يتغلب عليه • فلم يكن يصنع « الطيارة » من الورق بيديه

ويطيرها بالحيط المتين الى آفاق بعيدة في الجواء ، ولم يكن يلعب الكرة ، ولا « البلي » الا نادرا ، ويكتفى من المشاركة في اللعب بمرافقة التلاميذ اذا خرجوا لتطير طيارة ورقية كبيرة، فكان يجتمع اليها أبناء الحي ، فيتبعهم مشاهدا ، معجبا بشجاعتهم ، ومهارتهم في صنع الطيارة وتطيرها ...

كانت نهاية المطاف بالمدارس عند جرجي زيدان عندما أتم عامين من التعليم في مدرسة ظاهر خير الله ، وكانت سنه يومئذ أحد عشر عاما ، وفتحت له المدرسة آمالا للمستقبل ، ولكن والده كان ينتظره بقارغ الصبر ليساعده في تقييد الحسابات بدكانه أو مطعمه . وترك مستخدم المطعم عمله ، فاضطر الوالد الى أن يدعو ولده ليحل محله لبضعة أيام حتى يظفر بمستخدم جديد . وأطاع الابن الحجبول الطموح ، ولكن الأيام السبعة طالت حتى بلغت سبعة أعوام قضائها الفتى في مطعم أبيه . وكان في الأم فطنة وجزع على مستقبل ولدها ، فما برحت تطالب الأب بأن يخلي بين الابن والمطعم حتى يعود الى طلب العلم ثانية ، وظلت تلح على الوالد ، والوالد يسرف في الوعود ... ثم صارحها بقوله : ان الفتى قد أتم تعليمه ، ولا فائدة من كثرة الدروس الا اذا كتبت تنوين أن تجعله كاتباً أو معلماً ... فضلا عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجا يأكل بالشوكة والسكين ! وربما حدثته نفسه فلبس الزى الأوربي !

لقد كان الوالد شديد المحافظة على التقاليد والعادات الشرقية،

فأفنع أم صاحبنا بوجهة نظره ، حتى رضيت بأن يدخل ابنها فى صناعة أخرى غير صناعة المطاعم التى كانت تكرهها ! وأخيرا قر رأيها على أن يتعلم ابنهما صناعة الأحذية ! فتعلمها ومكث فيها سنتين ، وهو صابر ؟ ولم لا يصبر حتى يجعل الله له مخرجا ؟ ألم يكن معلمه ظاهر خير الله بناء فصار بعد من أنبه المعلمين ؟

ترك صاحبنا صناعة الأحذية لأنها لم توافق صحته ، فاضطر والده الى اعادته الى المطعم الى أن تتهيا له صناعة أخرى تؤمن مستقبله ! وفى المطعم هذه المرة التقى الفتى بالمعلم مسعود الطويل ، وكان صاحب مدرسة تعلم الانجليزية للشبان ساعة الغروب • فتردد عليها مع أربعة عشر زميلا ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره ؟ وكان أجر المدرسة وجبات من الطعام يتناولها المعلم فى المطعم ! وقسا صاحبنا على نفسه فى تعلم الانجليزية ، حتى كان يقضى الليالى ساهرا فى الحفظ والدرس ، الى أن قويت فيه الملكة ، وتمكن من اللغة الى حد أخذ معه يشتغل بوضع معجم انجليزى عربى ! وبلغ فيه حرف « F » - أى خامس حرف من حروف الهجاء الانجليزية ؛ ولكنه توقف عن العمل لقلة جدواه ، وضعف وسائله • واقتنع بالقراءة حتى يزيد من حصيلته •••

العصامية وسر النجاح

حين عهدت احدى مؤسسات النشر الأجنبية الى المرحوم محمد فريد أبو حديد أن يترجم كتابا يتناول سير جماعة من الفقراء الذين أصبحوا من المشهورين ، رأى - رحمه الله - أن يضم الى الكتاب كتابا يتناول سير جماعة من الشرقيين العرب الذين وصلوا الى الشهرة بعد كفاح طويل مع الأيام ، فكان من هؤلاء المكافحين على باشا مبارك ، وجرجى زيدان ، والدكتور على ابراهيم ، وعبد الحمولى ، وسعد زغلول وغيرهم .

والحق أن وضع جرجى زيدان بين العصامين هو وضع للشئ فى مكانه الصحيح ، فان العصامية تتجلى فى هذا الرجل بأجلى بيان . انه لم يكن من أسرة غنية ، ولا من أسرة من تلك الأسر التى أعطتها المواضع الاجتماعية نوعا من التميز والاستعلاء . فما عرف

عن أسرته الا أن والده « حبيب » كان صاحب مطعم صغير يديره في ساحة البرج بالعاصمة اللبنانية • ولقد ولد الطفل جرجي زيدان في بيروت وشهد بعينه في طفولته هذا المطعم الصغير ، وشهد والده وهو يدير هذا المطعم في جو من الكفاح والتعب لا مثيل له • لقد كان الأب يخرج من بيته المتواضع الى دكانه المتواضع في ساعة الفجر ، وأكثر الناس هاثون بالنام اللذيذ ، فيظل فيه بين عمل واشراف وتردد على المطبخ ، ومقابلة للعملاء ، حتى يتتصف الليل ، فيخلق مطعمه ، ويروح الى بيته مكدود القوى ، منهك الجسم ، فيجد الزوجة تقابله بعد عمل شاق في المنزل ، فيلتقي المكدودان ، بينما الصغار قد ذهبوا قبل ذلك بساعات الى عالم الأحلام •

ويصور لنا جرجي زيدان هذه الدورة القاسية من الحياة بقوله : (...) وقد شئت على ذلك وألفته ، فغرس في ذهني أن الانسان خلق ليشغل ، وأن الجلوس بلا عمل عيب كبير • بخلاف الأبناء الذين يفتحون أعينهم على والدين يقضون معظم أيامهم في اللهو وشم الهواء ، ولا يهمهم الا ماذا يأكلون ، وماذا يشربون • واذا ما فرغوا من الطعام عمدوا الى اللعب بالورق أو غيره ، ولا يقدمون على العمل الا مكرهين ، يحسبون العمل عيا أو تعباً • ولو عولوا عليه لكفاهم مثونة المرض والضعف ...) •

وكان والد صاحبنا محتاجاً الى معاوته له في العمل ، وخاصة انه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب • وما أدخله المدرسة حياً للعلم أو

رغبة في تحصيله ، ولكنه رام من وراء ذلك أن يجد في الطفل معينا له على تقييد أسماء العملاء وتدوين حساباتهم ، حتى لا تبوء تجارة المطعم بالخسران ، وحتى لا يضطر الى استخدام كاتب بالأجر ، وفي ابنه غناء عن استخدام شخص غريب

وكأنما قدر على الطفل جرجي زيدان أن يذوق طعم الكدح في الحياة وهو في الخامسة من عمره ، فهو يذهب الى المدرسة ويرجع الى مطعم أبيه ليرى بعينه صورة الكفاح المجسم في والده الدعوب الكادح

ولم يجد صاحبنا في الفقر عيبا ولا عارا ، ولا معوقا عن الجهاد في الحياة ، بل على الضد من ذلك وجد فيه محرزا على العمل ، ودافعا قويا الى النضال . انه لم يئأس ، ولم يرض بأدنى ما ينال والده من الرزق ، ولم يكن راضيا عن العمل الذي يعمله والده . انه كان يتطلع الى آمام أبعد ، وآفاق أوسع ، وغايات أسمى . وكان ينظر الى الشبان الذين أتيحت لهم فرص التعلم في مدارس المرسلين الأجانب وكرلياتهم ، فيتمنى لو ساعفته الأقدار بأن يتاح له مثل ما أتيح لهم . وطالما تمنى على الله أن يسعده الحظ بالالتحاق فقط في واحدة من هذه المدارس ، وعليه بعد ذلك أن يمضي باجتهاده الى نهاية الطريق . ولكن أنى له أن يدخل هذا المدخل المشتهي وأبوه متشبث به ، مدخر له في المطعم ، لا يسمح له من التعليم الا بالقدر الذي يجعل منه مساعدا له في الدكان ؟

كان الفتى يجد في الفقر ألف حافز وحافز على بلوغ الآمال .
وما وجد نافذة يفتح منها ولو شعاع أمل ضئيل الا فتحها وأطل منها
على أمل جديد . ألم يستطع أن يوفق بين عمله في المطعم وبين
تعلم اللغة الانجليزية في مدرسة مسائية يديرها المعلم مسعود
الطويل ؟ ألم يقض في هذه المدرسة خمسة أشهر دائمة الدرس
حتى استطاع أن يحصل من الانجليزية ما لا يحصله غيره في سنتين ؟
ألم يقرأ « رحلة كوك في المحيط » ليختبر قدرته في هذا اللسان
الجديد فوجد نفسه دون ما كان يريد . فلم يزل يواصل الدرس
والسهر حتى عزم على تأليف معجم انجليزي عربي ؟ ان مؤلف
كتاب « مرآة العصر » يروي لنا قصة هذه الارادة ، وكأنه يضعها
مثالا للذين يريدون النجاح في الحياة .

وكفاح المترجم له ومغالبته الأيام يتجلى في كفاحه في سبيل
العلم الذي علق عليه أكبر الآمال في تخطيط مستقبله الجديد . لقد
كافح في سبيل لقمة العيش ، وكافح فوق ذلك في سبيل التعلم ،
ولم يتناقض الكفاحان أو يتلاقيا على أطراف النقيض . . . بل تلاقيا
كأحسن ما يكون اللقاء بين الأطراف .

وما كان كفاحه في سبيل تعلم الانجليزية الا مقدمة وتمهيدا
لكفاحه في سبيل عدد وافر من اللغات . ففي سنة ١٨٨٥ حينما
بدأت الدنيا تفتح أمام عينيه اقتدب عضوا في المجمع العلمي الشرقي
الذي أنشئ في بيروت سنة ١٨٨٢ ، والذي كان ثمرة من ثمرات

تفكير الدكتور يعقوب صروف ، والدكتور فارس نمر ، والمستشرق فاندريك ، والذي كان من أعضائه الشيخ ابراهيم اليازجي ، و ابراهيم الحوراني ، وسليم بطرس البستاني ، والدكتور ورتبات ، ومراد البارودي . فرأى أن يتزود لعضوية هذا المجمع ببعض اللغات السامية ، فتعلم العبرانية والسريانية وأخواتهما ، وأتقنها كلها في أقل من عام .

ولقد كان التصميم المسدد ، والأرادة القوية سبيل المترجم له الى تحقيق الغايات ، ففي سنة ١٨٨١ ، وكانت سنه اذ ذاك عشرين عاما ، صمم على الالتحاق بالمدرسة الكلية الأمريكية - التي عرفت فيما بعد باسم الجامعة الأمريكية ببيروت - ليدرس الطب . وكانت مواد امتحان القبول في هذه الكلية تشتمل على الحساب والجبر والهندسة وعلوم الطبيعة واللغة العربية والانجليزية . أما اللغتان فأمرهما ميسور ، وأتقانهما حاضر موفور . ولكن المشكلة في المواد الأربع التي لم يكن يلم بها الماما يهيبء له النجاح في امتحان القبول . وهنا يتجلى التصميم والارادة من جديد ، فاتتهز عطلة الصيف قبل أن يعقد الامتحان ، ووصل الليل بالنهار في درس هذه المواد حتى دخل الامتحان وكان في طليعة الناجحين ، وأصبح منذ ذلك اليوم طالب طب في المدرسة الكلية الأمريكية . وان كان لم يتم التعليم في مدرسة الطب فانما كان ذلك بسبب من الأسباب القاهرة التي ليست من كسب المرء ولا من صنع يديه .

والتصميم المسدد والارادة القوية فى النجاح كان يظهرهما
عند جرجى زيدان اهتمام دائم بمعرفة أسباب النجاح عند الناجحين
فى الحياة • فهو يعرف بالحبرة الملموسة القريبة أن معلمه « ظاهر
خير الله » اللغوى الناجح كان فى أول أمره بناء يشد الجدران ،
ويقسم الحيطان ، ويحكم البنيان • فما زال يتوصل بالعلم حتى صار
علما ملحوظ المكان •

وهو يعلم من قراءاته سير أناس نجحوا فى الحياة بعد فقر ،
وارتفعوا بعد خمول ، وصاروا من « المشاهير » بعد أن كانوا من
المنكسر •

ووقع فى يد الطفل جرجى زيدان كتاب « سر النجاح » للكاتب
الانجليزى صموئيل سمايلز ، وقد ترجمه الدكتور يعقوب صروف
الى العربية بإشارة من الدكتور فان ديك المستشرق المشهور •
ورأى صاحبنا فى الكتاب صورا من الاعتماد على النفس ، والمثابرة
والثبات ! وقرأ فيه سير جماعة من رجال الأعمال والمال والفنون
صنعوا حظوظهم بأيديهم بعد معاكسات من الأقدار • وأضاف
« صروف » الى الكتاب سير جماعة من الشرقيين رأى أن يستكمل
بهم صور النجاح ما بين مشرق ومغرب من أمثال العلامة بطرس
البستاني ، والدكتور فان ديك ، ومحمود باشا الفلكى •

وخرج الفتى جرجى من قراءته الدائمة لهذا الكتاب بايمان
قوى ، وأمل متفتح للحياة • وكانت تستهوى الفتى صور الناجحين،

وظلت منطبعة في ذهنه الى أن أتيح له يوما ما أن يؤلف كتابه المشهور « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » ، وقد صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٢ ، فجمع في كتابه طائفة من العصامين الذين غالبوا الظروف حتى تغلبوا عليها ، واستولوا على الأمد بما اجتمع فيهم من وسائل الكفاح للنجاح .

ووضع زيدان نصب عينيه في مؤلفه عن تراجم مشاهير الشرق أن يبرز بوضوح قساوة ظروفهم ، وأسباب نجاحهم ، حتى يكون القارئ منها دائما على ذكر لا يصيبه انفعال .

ففي ترجمته لسليم صيدناوى شقيق سمعان صيدناوى اللذين اشتهرا بإدارة أكبر محل تجارى في مصر ، خص جزءا من الترجمة بكتابة فصل عن شروط النجاح ، جعل منها المعرفة ، وحسن الاختبار ، والثبات ، والاستقامة ، والاجتهاد ، ومراقبة الفرص ، وأسلوب المعاملة . ولم يكتف بهذا الفصل بل أتبعه بفصل آخر عنوانه « أساس النجاح » ، عالج فيه أسبابا أخرى تتصل بالأمانة والاستقامة ومعرفة الأسواق ، وكأنه جعل هذا الفصل تطبيقا عمليا من سليم صيدناوى للشروط التى وضعها للنجاح .

ومن الناس من يلقون ستارا من النسيان على ماضيهم اذا كان مكلا بظباب الفقر والحرمان ، فهم يفرون من هذا الماضى زلا يحاولون اظهاره أو الإشارة اليه بحال ... ولكن جرجى

زيدان لم يجد أن يحجب ماضيه بحجاب • بل رأى أن ينشر أشد مافيه ، وأقصى مافيه لعل في ذلك عبرة لمن أراد أن يعتبر • وكان ذلك منه ايمانا بأن الفقر ليس فيه ما يعاب ، ولكن العيب أن يتخاذل المرء وبين يديه أسباب النجاح ، ولهذا نجد في مذكرات جرجي زيدان كثيرا من المصارحات التي يضمن بالافضاء بها كثير من الناس • انه يتحدث في مذكراته عن فقره ، وعن كدحه ، وعن المهن المتواضعة التي امتنها ما بين صانع أحذية ، وبائع صغير في متجر يملكه تاجر للأقمشة ، ومساعد لوالده في مطعم صغير متواضع ببيروت •

ولم تكن الأيام في أيام جرجي زيدان الأولى سخية عليه بالعطاء • فكأنما كان يتزعززع الرزق من بطون الأساود • ولقد بلغ به الأمر أنه حينما اعتزم الهجرة الى مصر سنة ١٨٨٣ لم يكن معه من النقود ما يسد به نفقات الرحلة ، فاقترض من أحد جيرانه الطيبين ببيروت ستة من الجنيهات • وقد أخذها من الجار على أن يردّها اليه حينما يمن الله عليه بالايثار بعد الاعسار ، لا على أن يأكلها كما يفعل بعض المقرضين ••• ولم يمض عام واحد على مقام المترجم له في القاهرة وتأمين العمل له حتى بعث الى جاره البيروتي يرد له الدين مقرونا بالشكران والعرفان •

وهذه حادثة لم يكتبها جرجي زيدان وهو يكتب مذكراته ، بل سجلها كما سجل كثيرا غيرها من أعجب الحادثات •

لقد كان جرجى زيدان نمطا عاليا رفيعا من الأنماط الانسانية
المثابرة فى الحياة • وكان المجد العلمى والأدبى الذى بلغه جزاء وفاقا
للمجهود العظيم والكفاح الجسيم الذى بذله • فكان بحق أكرم صورة
للتعويض عن معاكسة الحظوظ ومضايقة الأقدار • ويقتضى المقام
هنا أن نستحضر قول المرحوم الأستاذ محمد فريد أبو حديد وهو
يقدم لكتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » الذى كان
جرجى زيدان أحد المترجم لهم فيه : (... فالنجاح والخذلان ،
والمقدرة والعجز تسير جنبا الى جنب منذ بدء الحياة • والفرق بين
حالى السمو والاسفاف ينشأ من قلوب الناس أنفسهم ، لأنهم هم
الذين يصنعون مصائرهم بأيديهم عندما يختارون طريقهم فى الحياة،
ويحددون لأنفسهم غايتها ووسائلها) •

رحلات ومشاهدات

كان جرجى زيدان - صاحب مجلة الهلال - مثل الهلال السماوى فى تنقله ودورانه • فلم يكن يحب الالتصاق بأرض لا يبرحها الى غيرها من بلاد الله ، ولكنه أعطى نفسه من الترحال والتجوال ما سمحت له به ساعات الفراغ •

ولقد تنوعت رحلات زيدان وأسفاره بين الهجرة ، والعمل ، والمتعة ، ولكنه كان فى رحلات التزهة والمتعة يستخرج منها أقصى ما يمكنه الحصول عليه من منفعة للعلم والمعرفة ، والمصادر والوثائق والمخطوطات ، والطباعة ومدى ما وصلت اليه فى أحدث تطوراتها •

ولقد قدر للفتى القابع فى حى ميتواضع من أحياء بيروت أن يركب البحر لأول مرة فى حياته حينما استقل فى شهر اكتوبر

سنة ١٨٨٣ باخرة تجارية تحمله الى مصر • وكان ذلك أول عهد الفتى بالأسفار ، والبعد عن الديار • وكانت تلك الرحلة للهجرة لعل الفتى يجرب فيها حظه مع المهاجرين السوريين الذين كانوا في ذلك العهد يرحلون عن البلاد فرارا من ظلم الأتراك ، وطلباً للرزق في أرض الله الواسعة •

وشاء الله أن يدخل زيدان ثغر الأسكندرية في أعقاب ما أصابها من حرائق ، وما نكبت به من تدمير بفعل جيوش الاحتلال البريطاني • فكانت تجلج جو ذلك الثغر باسم سحابة من الكآبة والحزن العميق •

ولم يطل بصاحبنا المقام في القاهرة محرراً في صحيفة «الزمان» كما سبق القول ، فاذا بالانجليز يرسلون حملة نيلية الى السودان لانتقاذ غوردون ، وكانت تتألف من ستة آلاف جندي كما يروى جرجي زيدان في كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، وكان أكثر قوادها من طبقة الأشراف والنبلاء في انجلترا ، فقد تسابق اليها القوم لزعمهم أنها (عبارة عن فسحة على النيل) • واختير جرجي زيدان بوصفه مترجماً مرافقاً لتلك الحملة التي سافرت في سنة ١٨٨٤ ، وقد أشار كراشكوفسكى الى مشاركة زيدان في تلك الحملة النيلية وأوجز الخبر في سطرين اثنين من بحثه في دائرة المعارف الاسلامية ، كما أشير اليها في الترجمة التي نشرت في ذيل الجزء الرابع من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » • ولم تخل من

أشارة إليها أيضا في الترجمة المطولة التي نشرت في عدد اكتوبر من مجلة الهلال سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد صدر من هذه المجلة بعد وفاة صاحبها . ولعل أطول اشارة إليها هي ما جاءت في كتاب « مرآة العصر » لألياس زخورة حيث يقول : (... حتى كانت الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ لأنقاذ غوردون باشا ، فسار برفقتها مترجما بقلم المخبرات ، وترك صناعة القلم مؤقتا رغبة منه في استطلاع أحوال تلك البلاد ، فقضى فيها نحو عشرة أشهر ، فشهد أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبى طليح والتمتة وغيرهما ، ولا تسأل عما قاساه من الأهوال في تلك السفرة ، فقد رأى مواقع الحرب رأى العين ، تحت اطلاق المدافع ووزوزة القنابل ، وشاهد القتلى مئات وألوفاً ، الى أن عاد بعود الحملة بعد مضي عشرة أشهر ، فنال مكافأة المدالية الأنكليزية ، والتمتة المصرية ، والعروة المختصة بواقعة أبى طليح) .

وقد أمدت هذه الرحلة الرسمية جرجى زيدان بمصدر من المعارف والمعلومات حين دون الفصل الخاص بثورة المهدي بالسودان في كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، فهو في هذا الفصل يكتب عن معانيته للحوادث ، ومعاشته للوقائع ، فيقول : (وكنت ممن سار برفقة حملة العظمور ، فشهدنا وقائعها ، وسمعنا اطلاق مدافعها ، ورنات قنابلها ورصاصها) ثم يتابع الرواية بعد قليل فيقول : (وقد كنت في جملتهم في تلك الليلة الليلية ، فكنا سائرين لا نرى شيئا

من آثار الطريق المؤدى الى المكان المقصود لشدة الظلام ، فاضطربنا
الى الاستدلال عليها بالأبرة المغنطيسية والنجم القطبى • وكنا تارة
نصعد على آكام متلمسين ، وطورا تعثر أرجل جمالنا بأعشاب أو
أنجم شوكية، ولم نكن نخرج صوتا ولا نقدح نارا لئلا يكون بقربنا
من الأعداء من يستطلع أحوالنا فيحبط مقاصدنا •••)

وفى سنة ١٨٨٥ - وبعد عودته من حملة السودان بقليل
عاد الى بيروت • ولا ندرى ماذا كانت أهداف رحلته هذه أو زيارته
لموطنه • ولكننا نعلم أن « المجمع العلمى الشرقى » اختاره ليكون
عضوا من أعضائه ، وقد سبق الحديث عن هذا المجمع فى فصل سابق
وفى هذه الرحلة أقام ببيروت عشرة أشهر يبحث ويدرس ، فتعلم
العبرية والسريانية •

وفى صيف سنة ١٨٨٦ وجه زيدان همه للسفر الى لندن ،
ولا نعلم الغرض الحقيقى من رحلته هذه ، ولكن المرحوم طاهر
الطناحى يقرر فى كتاب « عصاميون عظماء » أنه تردد على أندية
العلم فيها وزار المتحف البريطانى • على أن المستشرق كراتشكوفسكى
قد أوجز الإشارة الى هذه الرحلة ، ولكنه لم يوضح لنا ما فعله
فيها ، على حين أن صاحب « مرآة العصر » يقرر أنه (كان فى أثناء
اقامته هناك يتردد على أندية العلم ومجتمعات الآثار ، وخصوصا
المتحف البريطانى الشهير) • ويخيل إلينا أنه كان فى خلال ذلك
العمر المبكر - حيث كانت سنه يومئذ خمسة وعشرين عاما - يجمع

المواد الأولية لمشروعات كتبه في آداب اللغة العربية وتاريخ التمدن الاسلامي ، وان كان حتى ذلك الحين لم يعان التأليف ، ولم يشتغل بالتصنيف ، الا ما كان من كتابه الأول : « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » الذي كان باكورة انتاجه في المكتبة العربية .

ولم تكد الأحوال تستقر في الدولة العثمانية بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد وعلان الدستور حتى عزم جرجي زيدان على زيارة تركيا . فشد اليها الرحال في سنة ١٩٠٨ . ويشير كراتشكوفسكي الى هذه الرحلة اشارة سريعة . ويشير الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه « الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث » الى زيارة جرجي زيدان لسورية ولبنان سنة ١٩١٠ ، وهي زيارة تمخض عنها مقال في السنة التاسعة عشرة من مجلة الهلال ، ينصح فيه صاحبنا جماعة المتشائمين من العرب بعدم اساءة الظن بالحكومة الدستورية في تركيا ، والصبر على وعود الحكومة بالاصلاح حتى تتمكن من تحقيق ما وعدت به .

وفي سنة ١٩١٢ نرى أن جرجي زيدان قد شد الرحال الى أوروبا في زيارة طويلة ، والى هذه الرحلة أشار محرر مقال « دائرة المعارف الاسلامية » اشارة عابرة . ولعلها هي الاشارة الوحيدة التي جاءت في كتاب من الكتب التي ألت بسيرة المترجم له . وقد نشرت فصول من هذه الرحلة في أعداد من مجلة الهلال ، على عادة زيدان . ولكن دار الهلال قد نشرت هذه الرحلة كاملة في كتاب

عنوانه « رحلة جرجى زيدان الى أوروبا سنة ١٩١٢ » وهذا الكتاب من منشورات دار الهلال سنة ١٩٢٣ ، أى بعد تسع سنوات من وفاة صاحب الهلال . وقد مهد زيدان لهذه الرحلة بتمهيد يقول فيه : (قضينا صيف هذا العام فى أوروبا بين فرنسا وانكلترا وسويسرا ، وتنقلنا فى أهم مدائنها ، فزرنّا مرسيليا ، وليون ، وباريس ، ولندن ، وكمبريدج ، ومنشستر ، وأوكسفورد ، وجنيف ، ولوزان ، وأفيان ، ودرسنا أحوالها ، وتفقدنا متاحفها ومكاتبها - يعنى مكاتبها - وآثارها . وتوخينا النظر على الخصوص فيما يهم قراء العربية من أحوال تلك المدينة التى أخذنا فى تقليدها من قرن كامل ، ونحن نتخبط فى اختيار ما يلائم أحوالنا منها ونقتصر من ذلك على ما يهم القارئ الشرقى ، من حيث حاجته الى تحدى مدينة أولئك القوم فى نهضته هذه ، ونبين ما يحسن أو يقبح من عوامل تلك المدينة ، بالنظر الى طبائعنا وعاداتنا وأخلاقنا . وسنقل سباق الرحلة ، فلا نذكر رحيلنا أو نزولنا ، وما لاقيناه أو كابدناه فى أثناء ذلك ، على ما جرت به عادة أهل الرحلة . اذ ليس غرضنا أن يكون ما نكتبه دليلا للراجلين فى السفر والنزول ومعركة الطرق والمسافات والأجور . وانما نريد أن نمثل للقارئ ما طبع فى ذهنا أثناء هذه الرحلة بعد اعمال الفكرة فى أحوال تلك الأمم) .

ونستطيع أن نضم رحلة زيدان هذه الى نظائرها من رحلات العرب فى العصر الحديث ، من أمثال رفاعة الطهطاوى ، وعلى

مبارك ، وأمين فكرى ، واحمد زكى باشا ، وأحمد فارس الشدياق ،
ومحمد ليب التباونى ، وأحمد حسنين ، وشكيب أرسلان ، وأمين
الريحانى ، وعبد الوهاب عزام ، ومحمد ثابت ، وفؤاد صروف ،
وجميل خانكى ، وأمين المميز العراقى ، وأحمد عطية الله ، ونزيه
مسعد ، وعبد السلام العجيلى ، وأنيس منصور ، وفتح الله الصقال ،
ومحمود البدوى . ولكل من هؤلاء طريقته فى الوصف، والعرض،
والتعليق ، وجمع المعلومات ، وتسجيل اللمحات . وأجمل ظتنا
بقارئنا الكريم أنه يعرف عناوين رحلات هؤلاء الرحالين والجوابين،
فلا معنى للمء هذا الفراغ بذكرها .

وإذا كان زيدان قد كشف لنا عن منهجه فى الرحلة وغرضه
من تسجيل آثارها ، فانه لا يفوتنا هنا أن نشير الى النواحي التى
جلاها فى زيارته لفرنسا فى القسم الخاص بها من الكتاب ، فقد
تحدث فى دقة وافاضة عن نظام حكومتها ، وعمرانها ، وحالتها
الاقتصادية ، وحالتها العلمية ، ومظاهر حضارتها كالمركبات العامة،
والاعلان ، والأزياء ، والبوربوار « البخشيش » - أو البخشيش -
ونظام الاجتماع فيها ، وطبائع الفرنسيين ، والجمال ، والاقتصاد
والترتيب ، والثقة بين الناس ، وقيمة الوقت ، وصدق المواعيد ،
والمفاخرة برجالهم ، والحرية ، وطعامهم ، وشرابهم ، والأرماليات
- أو البعثات التعليمية - المصرية ، وآثار فرنسا ، وخريج نابليون،

ومتاحف باريس ، ومعارض الصور ، والمكتبة الأهلية ، وقصور
العاصمة وضواحيها ، وقصور فرنسا على وجه العموم .

وكان زيدان - شأن المفكر الاجتماعي المصلح - يعقد الموازنات
والمقارنات في رحلته بين حالنا هنا ، وحال القوم هناك . ففي فصله
له عن التعليم بفرنسا يفضي به القول الى الحديث عن التعليم بمصر
في وقت رحلته قبل الحرب العالمية الأولى بعامين ، فيقول في صراحة
تامة ملقيا تبعة التقصير على الحكومة وأصحاب الأموال : (فالتعليم
عندنا ضعيف جدا من كل وجه . ويكفي في هذا المقام أن نرين
تقاعد حكومتنا وأغنيائنا عن التعليم ، ولا يحتاج علينا بصغر مصر
بالنسبة الى فرنسا ، فان سكان مصر يناهزون ثلث سكان فرنسا ،
ومع ذلك فالحكومة لا تتفق على التعليم عشر ما تنفقه فرنسا .)
وعند ما شاهد زيدان في رحلته الى أوروبا سنة ١٩١٢ الحرية
البالغة التي تتمتع بها المرأة الفرنسية ، وتجاوزها الحدود في اساءة
استعمال هذه الحرية ، حمد الله على حال المرأة العربية ، وكاد يرضى
لها بالحجاب والجهل ، مع أنه كان من أشد القوم هنا مناصرة لحركة
التحرير التي دعا اليها قاسم أمين . . .

وكان في زيدان المؤرخ الأديب اللغوى طبيعة الرحالة حين
ينزل ببلد ، فلا يجد معذى من وصفه ووصف عمارته ومغارسه
ومنازله وأهله ، والألأم بتاريخه . فانه لما زار سورية ولبنان في سنة
١٩١٠ - كما سلف القول - لم يفته أن يكتب بحثا ، ويرسم صورة

لدمشق والدمشقيين • وتمتاز أوصافه تلك بالدقة والالمام بالتفاصيل •
ولا بأس من ايراد هذه الصورة لدمشق من مطلق لها عال على
«الصالحية» يقول فيه صاحبنا (١) : (أشرفنا ذات صباح على دمشق
من مكان يقال له « المصطبة » ، فإذا هي مبسوطة بين أيدينا ، وحولها
الغوطة تحديق بها من كل ناحية ؛ كأن دمشق قصر كبير تحيط به
حديقة كبيرة • ومساحة هذا القصر : دمشق ، بضعة أميال مربعة ،
وأما حديقته : الغوطة ، فتمتد بضعة أميال الى كل ناحية • تخترقها
الأنهر والترع ، وتشتبك أشجارها المثمرة ، وأكثرها من المشمش
وهو أكبر غلاتها ، والتفاح ، والكمثرى ، واللوز ، والسفرجل ،
والرمان وغيرها •

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق وغطتها وبساتينها
وهوائها وسكانها • قال الصنوبري :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها

فلست ترى بغير دمشق دنيا

تفيض جداول البلور فيها

خلال حدائق ينبتن وشيا

(١) مجلة الهلال : الجزء الثالث من السنة الرابعة والثلاثين - أول
ديسمبر سنة ١٩٢٥ •

مكللة فواكهسن أبهى ال
المناسظر فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خدا
ومن أترجة لم تعد ثديا ...!

لقد كان جرجى زيدان يجد فى مطالعة الكتب والوثائق
والمخطوطات مصدرا لا ينضب للمعرفة التى ملأ بها تصانيفه ، ويجد
فى الرحلات والأسفار مادة للخبرة والتجربة فى الحياة ، فتزود من
التأحين بأعمق وأخصب وأطرف ما يمكن أن يتزود به انسان ...

زيدان المعلم والأستاذ

عجيب أمر هذا الرجل الذى كان قصاره أن يتهمى به الأمر
ليدير المطعم المتواضع الذى كان يملكه والده فى بيروت • ولكن آماله
كانت بعيدة المرمى ، فهو يحلم بأن يكون يوما ما مثل الأدباء والعلماء
الذين كانوا يترددون على مطعم والده • وهو يرجو أن يصبح يوما
ما مثل هؤلاء الصحفيين الذين كانوا يتناقشون ويثرثرون على موائد
الطعام فى ذلك المطعم الذى كان قابعا فيه يرقب الداخلين والخارجين •
وكان يرى الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمعلم عبد الله البستاني -
صاحب معجم البستان - يفدان الى المطعم فيمن يفد اليه من العملاء ،
فيأتس بهما ، ويقف بالقرب منهما يستمع الى أحاديثهما ، ويعي
كلامهما • فلما وجدا منه حسن اصغاء أذنا له بالجلوس معهما يقترب
من بحرهما ، وينهل من مواردهما • بل كان يرجو أن يصير فى يوم

من الأيام مثل طلبة الكلية الأمريكية ببيروت الذين كانوا من المترددين على مطعم أبيه ، وإن يتاح له من فرص الالتحاق بالكلية ما أتيح لهم . وكثيرا ما كانوا يعجبون بسعة معارفه ، ونضج آرائه ، وتفتح ذهنه ، فيدعونه معهم الى الاحتفالات التي كانت تقام بالكلية في المناسبات المختلفة ، وخاصة في أعقاب الامتحانات ، فيسمع الخطب ، ويرى التلاميذ الناجحين يظفرون بأعجاب الحاضرين ، فيتمنى في نفسه لو يكون مثلهم . وقد استولى عليه الألم فيصارع أحد أصدقائه بقوله : ألا يأتي يوم أقف فيه موقف أولئك المعلمين ؟ هذا الفتى الذي كان يتمنى التعليم بأية وسيلة قد أصبح في سن الثامنة والعشرين معلما . ففي أواخر سنة ١٨٨٩ كانت شهرته في التأليف قد بدأت تظهر - وخاصة بعد كتابه في الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية ، و كتابه في تاريخ مصر الحديث الذي ظهر في أوائل سنة ١٨٨٩ ، و كتابه عن تاريخ الماسونية الذي كان من حصيلة ذلك العام أيضا . فاذا بإدارة المدرسة العيديدية الكبرى لطائفة الروم الأرثوذكس بالقاهرة تدعوه ليقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها فيها سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المدرسة - التي كانت تعد من المدارس الأجنبية - تهتم بتعليم اللغة العربية اهتماما عظيما ، وتختار لتدريسها أكفأ المعلمين من المصريين والسوريين ، ومؤسسها روفائيل عبيد السورى (١) .

ولأول مرة يصبح جرجى زيدان معلما في المدارس . . . فهو

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٤ ص ٥٠ .

الآن ، والقياس مع الفارق كما يقولون ، مثل معلمه الأول « ألياس »
الذى كانت مدرسته فى قيو متواضع بيروت ... ويقضى زيدان فى
التعليم بالمدرسة العيديدية مستين ، وتتصوره فى مهنة التعليم رجلا
موفقا ناجحا محبوبا من تلاميذه . لأن له من سمته ووقاره وهدوئه
وحياثه وغزارة مادته العلمية وبساطته فى اىصال المعرفة الى التلاميذ
ما يضمن له النجاح والتوفيق .

هذه هى الفرصة الوحيدة التى مارس فيها زيدان التعليم
النظامى بمدرسة نظامية . وقد تهيأت له فرصة أخرى للتدريس
بالجامعة المصرية القديمة ولكن ظروفًا معينة حالت دون ذلك . فان
شهرة الرجل فى التاريخ وتاريخ الحضارة الاسلامية قد نبهت ادارة
الجامعة المصرية الى ضرورة الأفادة من جهود هذا الرجل العظامى
وعلمه الغزير . وكان كتابه (تاريخ التمدن الاسلامى) قد ترك
دويا هائلا فى العالم كله بين مشرقه ومغربيه ، فأثنى عليه العرب
والمستعربون ، وعدوه أول وأعظم مصدر لتاريخ الحضارة العربية
الاسلامية . وما كادت اجراءات التعيين فى الجامعة تأخذ طريقها
حتى قامت أصوات قوية تعارض الكتاب ، وتعارض تعيين مؤلفه فى
الجامعة . وكان الرجل قد أعد بالفعل المحاضرات التى سيقوم بألقائها
على طلبته فى الجامعة وضمها فى مخطوط واحد يكون بين يديه حين
يبدأ العمل . ولكن أصوات المعارضين كانت أقوى من كل شىء ،
فحيل بين الرجل وبين مكانه الصحيح فى الجامعة التى كانت تفخر

بانضمامه الى هيئة التدريس فيها ، وصدم الرجل حين سمع وقرأ
ضجيج المعارضين ، واستجابة ادارة الجامعة لتلك الضجة القائمة .
ولكنه كان أصفى نفساً من أن تؤثر فيه أمثال تلك الحملات العنيفة ،
فانسحب من غبار المعركة في هدوء وانكسار وسلم إدارة
الجامعة المخطوط الذي كان يضم المحاضرات المنوى ألقاؤها ليكون
تحت تصرفها أو ليكون - على الأقل - صدى من أصداء تلك
الحركة الشديدة . ولا يزال المخطوط في مكتبة جامعة القاهرة
اليوم ينتظر من يزيح الغبار عن جوانبه .

ولعلك أيها القارئ الكريم تود أن تعرف السر في الحملة
التي أقيمت ضد جرجى زيدان لتحويل بينه وبين التدريس في الجامعة
المصرية القديمة . لقد كانت انتقادات الشيخ شبلى النعماني المصلح
الاسلامى فى الهند لكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » ، هى الشرارة
الأولى لتلك الحملة . فقد اتهم جرجى زيدان بالشعبوية ، واتهمه
بالخوض فى أمور اسلامية لا يحسن الخوض فيها ، واتهمه أكثر من
هذا بأنه يعمل على تحقير الأمة العربية وابداء مساويها ، واتهمه
بالكذب فى رواية الحوادث ، والخطأ المقصود فى الاستنتاج . وقد
نشرت مجلة « المنار » للسيد محمد رشيد رضا هذه الاتهامات
والانتقادات فى سلسلة من المقالات سنة ١٣٣٠ هـ ١٩١٢ م . وكانت
أصدائها لا تزال قوية ترن فى الآذان ، فتخرج المشرفون على الجامعة
من ندب الرجل للتدريس فيها بعد أن قيل فيه ما قيل . وقد أشار

المستشرق كراتشكوفسكى الى هذه الحادثة فى كلمات قليلة وجيزة يقول فيها : (ولم يكن المسلمون المحافظون ليرضوا بأن يعمد زيدان - وهو الكاتب المسيحى - الى الخوض فى موضوعات اسلامية بحتة • ويتجلى ذلك بأجلى بيان فى الهجمات التى تعرض لها عندما عرض عليه منصب الأستاذية فى الجامعة المصرية) •

والحق أن الحيلولة بين جرجى زيدان وبين التدريس فى الجامعة كانت خسارة لا تعوض لجامعة ناشئة فتية، حشد لها العلماء والأساتذة العالميون من أمثال كارلو نللينو ، وليتمان وغيرهما • وقد كان المرحوم الشيخ محمد الحضرى يلقى فيها محاضراته عن التاريخ الإسلامى ، ويعلم طلبة الجامعة القدماء من أمثال طه حسين ، وأحمد الببلى ، ومحمود عزمى ، وسيد كامل كيف يقرءون المصادر العربية الكبرى من مثل تاريخ الطبرى ، والكامل لابن الأثير وغيرهما •

على أن جرجى زيدان ، اذا خسرت الجامعة وخسره كرسي التدريس فيها ، فقد استبدل بذلك جامعة الحياة التأليفية التى كان فيها صاحب مكان مرموق • فليس من الضرورى أن يكون المعلم صاحب كرسي يجلس عليه ويجلس الطلاب أمامه • فقد يكون المؤلفون أصحاب رسالة تعليمية كبرى لا تقل عن رسالة المعلمين فى المدارس والجامعات • والى هذه الحقيقة يشير المغفور له داود بركات رئيس تحرير الأهرام من كلمة له فى تأبين جرجى زيدان يوم وفاته سنة ١٩١٤ حيث يقول : (جرجى زيدان يبتدىء فضله

بأنه علم نفسه ، ويتضاعف هذا الفضل ويعظم ، ويفخم ويسمو .
بأنه كان فى مدى حياته كلها معلما لغيره • ويدوم هذا الفضل غير
منته الى حد ، ولا منقطع الى مدى ، « بهلاله » ، وهو - يعنى
الهلال - وحده مكتبة ضخمة لا ينقصها علم ، ولا يفوتها فن ،
حتى يصح أن يقال لكل طالب : عد الى الهلال تلق ضالتك ، وبتأليفه
التي تستند قراءتها شطرا كبيرا من عمر القارئ اذا قرأ ، فكيف
بعم المؤلف اذا كتب ؟) •

واذا سلمنا بهذه الحقيقة ، حقيقة الأستاذية بلا مدرسة
ولا معهد ولا جامعة ، رأينا جرجى زيدان يخرج من القضية بأوفى
وأكرم نصيب • ان تلاميذ فى مدرسة نظامية لم يتلقوا عليه العلم الا
فى المدرسة العيديدية الكبرى ، ولكن تلاميذه فى مدرسة الحياة
الكبرى كانوا أكثر عددا ، وأرفع طرازا ، وأكرم معدنا • ونستطيع
ان نقول فى اطمئنان مع صاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب »
أن الدراسات التى كتبها طه حسين ، والعقاد ، وهيكى ، ووجدى ،
والجميل ، ومطران ، والبشرى ، والمنفلوطى ، وجبران على فترات
متباعدة أو متقاربة من ذكراه ، تعطينا فكرة واضحة بأن هؤلاء
الكتاب تتلمذوا أو اتصلوا من قريب بآثار هذا الكاتب ، فضلا على
أن هذه الآثار كانت موجهة لفنهم وأسلوبهم •

لقد كان زيدان فى الحق معلما دون أن يكون له « طراحة »
أو « باشتخته » يجلس عليها ، أو سبورة يطرز سوادها بياض

الطباشير • وكان معلما دون أن يتقيد بفصل معين من التلاميذ ، أو بجرس يدق فيؤذن التلاميذ بالاقبال والانصراف ••• ذلك الجرس الذى وصفه شوقى بقوله :

لهم جرس مطرب فى السراح

وليس اذا جد بالمطرب

وكان معلما من فرع رأسه الى أخمص قدمه وهو يث علمه الغزير فى جود وسخاء ، كالشجرة الكريمة تجود بالعطاء فى غير من ولا استعلاء • وكان علمه هذا ينشره عن طريق مؤلفاته الكثيرة الحسبة ، و « هلاله » الحبيب الثرى المعطاء •

لقد كان جرجى زيدان أستاذا لكثيرين ممن انعقدت لهم فى الأدب والعلم والصحافة ألوية ، واستقام لهم فى الفكر العربى مكان •

واذا أردنا شاهدا على ما نقول فلن يعوزنا الأتيان من ذلك بالعشرات ••• لقد كان أنطون الجميل أديبا ناشئا حين ظهرت الطبعة الأولى من ديوان خليل مطران سنة ١٩٠٨ • وقرأ أنطون الجميل الديوان ، وبدت له فيه نقداً وملاحظات ، فسجلها فى مقال ، وبعث به الى جرجى زيدان لينشره فى مجلة الهلال • وعاد اليه فى مغرب اليوم التالى ليعرف رأيه فيه • وكان زيدان على عادة لا يخل بها فى حياته المنظمة ، وهى أن يجلس مغرب كل يوم فى مكتبة

الهلال بالفجالة • فلما وقعت عين زيدان على أنطون الجميل رحب به ، وأحسن لقاءه ، وهناك بمقاله ، ووعدته بنشره في عدد الشهر القادم من الهلال • ولم يكتف بهذا اللقاء الجميل ، والوعد الكريم ، ولكنه أسمعته بعض عبارات التشجيع قائلاً : (أبشرك بمستقبل حسن في الأدب اذا تابرت على البحث والكتابة ...) وأهدى الى المجلة على سبيل المكافأة • ولا شك أن هذا الحادث كان من الحوافز التي دفعتني الى الكتابة في المستقبل) •

هكذا يروى لنا أنطون الجميل بعض ذكرياته عن جرجي زيدان ، ومنها نعرف كيف كان الرجل يوجه من يشيم فيهم الأدب والثقافة ، وكيف كان يشجعهم بالكلمة الطيبة ، والمكافأة المجزية ، وفتح أبواب النشر أمامهم لعلهم يكونون يوما من الكتاب النابهين ، والأدباء المرموقين ؟ أليست هذه بعض صفات المعلمين والأساتذة الذين يسعدهم أن يكون لهم تلاميذ نجباء ، ولا يضرهم بحال أن يكون في تلاميذهم من يفوقهم في الاعتبار ، لأنهم كالآباء الذين يسعدهم أن تكون حظوظ أبنائهم أسعد من حظوظهم •

وما أكثر أدباءنا النابهين اليوم ، والناشئين في حياة جرجي زيدان الذين كانوا يترددون عليه ، ويسألونه في مشكلة من مشاكل العلم أو قضية من قضايا التاريخ ، فيفتح الرجل لهم صدره وعقله ، ويردهم بما فيه الافادة والاقناع • ومن هؤلاء الأدباء المرحوم عباس محمود العقاد ، وندعه هنا يروى بنص عبارته ما جرى بينه وبين

زيدان حيث يقول : (٠٠٠ ومرة أخرى زرتة في بيته في الفجالة وانظاهر ، وأنا مشغول بقراءة شوبنهاور لأسأله رأيه في أصح النظرتين الى حقائق الحياة : نظرة المتشائمين أو نظرة المتفائلين ٠٠)

وما أكثر ما كانت مجلة الهلال تفتح صدرها لأسئلة القراء في كل لون وفن • وما أكثر ما كان زيدان وحده يرد على هذه الأسئلة رد العالم المثبت المتمكن ، ولو أحوجه الجواب الى الاطلاع على عشرات من المراجع والمصادر !

ان الله قد أفاض عليه المعرفة والعلم ليفيضهما على غيره ممن لا يجدون السبيل لهما ميسرة ، فهو كالجدول لا يبخل بقطرة من ماء ، وكالشمس لا ترضى بحزمة من ضياء •

ولو رجعت الى اعداد مجلة الهلال منذ انشائها سنة ١٨٩٢ لوجدت فيها بابا يطالعك كل شهر هو باب « بين الهلال وقرائه » ، وتختلف فيه الأسئلة في ميادين العلم والأدب والتاريخ والاجتماع • فهذا سائل عن « فناء المادة » ، وهذا سائل عن « استئناس الوحوش » ، وهذا سائل عن « عبادة الشمس » ، وهذا يسأل : هل أخطأ هارون الرشيد أم أصاب في القتل بالبرامكة ؟ وكلها أسئلة كانت تجد من محرر الهلال الاهتمام بالجواب •

ان قراء الهلال كانوا يقفون من زيدان موقف الطالب من
المعلم ، كما أن قراء مؤلفاته العديدة المفيدة كانوا في مثل هذا
الوضع من التلمذ عليه ، والأخذ عنه ، والأفادة منه • فاذا لم تكن
هذه أستاذية المعلم بحق فكيف تكون الأستاذية اذن بعد هذا التلقى
والانضاء ؟

مناهج التأليف عند زيدان

لقد ظل جرجي زيدان خمسة وعشرين عاما من عمره وهو لا يعالج التأليف ، ولا يهم به ، الا ما كان من تلك الفكرة الطارئة التي خطرت له وهو يتلقى دروسا في اللغة الانجليزية ، حيث بدأ بالفعل يضع معجما للغة الانجليزية والعربية بلغ فيه الى حرف E ولكنه توقف عن العمل فيه لقلة وسائله • ولعل لصغر سنه دخلا في هذا التوقف ، فقد كان يومئذ على أبواب الخامسة عشرة من عمره •

وفي سن الخامسة والعشرين صمم زيدان على أن يقدم للمكتبة العربية أول كتاب من تأليفه ، فكان كتابه « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » • وكانت الظروف المحيطة به ، والوسائل التي بين يديه تساعده على تأليف هذا الكتاب ، فهو يومئذ عضو « بالمجمع العلمي

الشرقي ، الذي انتخبه لما لسه الأعضاء فيه من الجدد والبحث ، ولما عرفوه عنه أيام كان طالبا بالسنة الأولى في الكلية الأمريكية ببيروت ، وهو يومئذ - أيضا - قد فرغ من تعلم العبرية والسريانية واتقانهما •

وعلى الرغم من طرافة موضوع الكتاب وأوليته في التأليف العربي فإن زيدان لم يكن له فيه منهج تألفي واضح • ولعل (للبداية) هنا دخلا كبيرا ، فإن العمل الأول دائما لا تستوى له من المناهج ما توحى به الأعمال التالية •

لقد ظهر كتاب « الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية » سنة ١٨٨٦ ، وكان بحثا متكاملا لم ينشر منجما في مجلة أو صحيفة ، لأن مجلة الهلال لم تكن قد أنشئت بعد • ولو كانت الهلال موجودة في ذلك الحين لرأينا الكتاب منشورا فيها على هيئة فصول في أعداد متتالية •

ومهما يكن من أمر فقد استقبل النقد - لا التقرير - كتاب الفلسفة اللغوية بما يستحقه من الاهتمام والتناول تقديرا لشأنه • ورأينا الدكتور يعقوب صروف يتناوله بالنقد التزيه في المجلد الثامن من مقتطف سنة ١٨٨٦ •

وإذا كان زيدان قد احتاج في سبيل تأليف هذا الكتاب إلى دراسة كتب فقه اللغة واللغتين العبرية والسريانية وغيرهما من اللغات

السامية ، فانه فى كتبه التالية مثل « تاريخ التمدن الاسلامى » ،
و « تاريخ آداب اللغة العربية » ، احتاج الى دراسات أوسع ، ومراجع
أعظم وأكثر ، ولغات أجنبية مما كتبه المستشرقون وعلماء الدراسات
العربية الاسلامية .

ولقد كابد جرجى زيدان كثيراً من الغناء فى جمع المواد
العلمية لمؤلفاته كلها بلا استثناء ، وخصوصاً أن موضوعاتها مبشرة
مشقة مما يضل فيه الباحث . وهذه حقيقة لا يعرفها الا الذين
عانوها من بعيد أو قريب ، وقد أشار اليها أنطون الجميل فى الخطبة
التى ألقاها فى تأبين زيدان حيث اجتمع زملاء الفقيه ورفقاؤه
(وهم أدري من سواهم بما يكابده المؤلف فى الشرق من الغناء
فى جمع مواده وتأليفها فى أى فن من فنون الكتابة . لذلك يدرون
كم كانت لغتنا مدينة لجامع أشتات تاريخها وتاريخ آدابها وتاريخ
شعوبها) .

واذا كنا فى زماننا هذا نكابد جمع المادة العلمية للتأليف ،
مع كثرة المكتبات ، وكثرة الكتب المطبوعة ، وحصر المخطوطات
وتصويرها ونشرها ، وفهرسة المواد والمصادر ، فكيف كان الحال
فى الربع الأخير من القرن الماضى ، حيث كانت العقبات تقف فى
سبيل الباحث والمؤلف على اختلاف صورها ؟

هذه المكابذات والمتاعب التى كان يلقاها المؤلفون والباحثون ،
ولا يزالون يلقونها الى اليوم بصور تختلف باختلاف الموضوع

ومراجعته المشتة المتأثرة ، قد لقيها زيدان واضطر الى أن يذكرها
حينما كثر المتقدون لكتبه ، الذين كانوا يتصيدون له المآخذ حتي
الضئيلة ، ويجسمونها ويبالغون في التهويل بها ، فنراه في مقدمة
الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول في لهجة من
الأسى : (أخذنا في هذه الخدمة منذ ربع قرن ، وتاريخ الاسلام
مشتت في كتب القدماء • فرأينا أن نأخذ على عاتقنا استخراجها من
مطائنه بالبحث والتحقيق • ويشهد الله والمنصفون من القراء أننا
أخلصنا النية ، وبذلنا الجهد في بيان حقيقته ، واعترضتنا عقبات
مهدناها بالصبر والاعضاء والجد والعمل) •

وكأنما أحس جرجي زيدان أن التأليف في المكتبة العربية
لا يصح أن يترك بغير توجيه أو تقويم • فقد كان الرجل يعرف
لغات أجنبية عدة ، وكان يعرف مناهج المؤلفين والباحثين في هذه
اللغات ، ويعرف الفرق بين البحث المشتت والبحث المنظم ، فوضع
للتأليف شروطا ذكرها في تقديمه للجزء الثاني من « تاريخ آداب
اللغة العربية » •

وقبل أن يمضي زيدان في بيان شروط التأليف أراد أن يحدد
الفرق بين من يكتب في الشؤون الخاصة ، وبين من يكتب للمصلحة
العامة فيقول : (من تصدى للكتابة أو التأليف فقد جعل نفسه خادما
للمصلحة العامة ، الا من يحصر كتابته في شؤون خصوصية أو يعالج
علما يلذ له ولا يهمه سواه ، أو يتعاطى الكتابة لأغراض معينة ، أو

يكون مرماه من التآليف بيان قدرته على الانشاء ، والغوص على المعانى العويصة والألفاظ الغريبة بتقليد الأساليب القديمة التماسا لاعتجاب العلماء ، مما يشق فهمه على جمهور القراء • فهؤلاء وأمثالهم يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص • ولهم منزلة وفضل ، ولكن فى غير الخدمة العامة • واذا لم يصادفوا اقبال من الجمهور اتهموه بالجهل ، وهمدوه بالاعراض والتقاعد عن الكتابة ، مع أنه لم يشعر بوجودهم ، لأنهم لم يخاطبوه بلسانه • وأما الكاتب العمومى فانه خادم الأمة وولى ارشادها • وعليه أن يبذل الجهد فى سبيل مصلحتها) •

ويضع جرجى زيدان للمؤلف أو الكاتب الذى يكتب للمصلحة العامة شروطا ثلاثة ؛ أولها أن يختار للكتابة الموضوع الذى يرى الأمة فى حاجة اليه • فما دام الكاتب يؤلف للمصلحة العامة فلا بد أن يتبين حاجات قومه ، ومطالب أمته ، حتى تكون تأليفه من نبع احتياجات القوم ومصالحهم • ومن هنا كان اختيار زيدان لموضوعات مؤلفاته • فان « تاريخ مصر الحديث » كان استجابة لضرورة معرفة المصريين بتاريخهم القديم والحديث ، وكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » كان صدى لحاجات العرب والمسلمين فى العصر الحديث الى معرفة مشاركاتهم فى الحضارة العالمية ، ومدى ما قدموه الى العالم من مدنية وحضارة ومعرفة • وكذلك الشأن فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » بل كذلك

كان الشأن في بقية كتبه الكثيرة ، فانها كانت من وحي حاجة الأمة العربية التي كاد ينقطع ما بينها وبين أمجادها التاريخية والأدبية في ذلك الزمان •

وثاني الشروط التي وضعها زيدان للمؤلف والكاتب الذي يكتب للمصلحة العامة (أن يسبك المؤلف موضوعه في قالب يسهل تناوله) • ولقد حرص زيدان على هذا الشرط في كل ما كتبه سواء أكان دراسة أدبية ، أم بحثا تاريخيا ، أم رواية من روايات تاريخ العرب والأسلام • وقد بلغ من حرصه على هذه السهولة أن اتهمه بعض النقاد بضعف الأسلوب ، وعدم التأنيق فيه ؛ كما فعل المرحوم الدكتور أحمد أمين في مقال له عن زيدان ، بالكتاب الذهبي من الهلال ، وكما فعل الشيخ ابراهيم اليازجي في نقده لأسلوب زيدان ولغته •

والحق أن زيدان قد راعى في سهولة الأسلوب ظروف قرانه الكثيرين من العامة الذين كان حريصا أن يبسط لهم المعارف ، ويسر لهم العلوم ، وهي مسألة سنتناولها بالتفصيل في موضع آخر من الكتاب •

وثالث الشروط التي وضعها صاحبنا للمؤلف : (أن يتوخى صدق اللهجة والصراحة ، بلا انحياز الى طائفة أو حزب) • وأغضب الظن أن جرجي زيدان قد وضع هذا الشرط الثالث في سنة ١٩١١ ردا على ما اتهمه به الشيخ شبلي النعماني المصلح الاسلامي الهندي

من تعصبه وانحيازه لطائفة اسلامية على أخرى • وكانت هذه الاتهامات عقب صدور كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي » سنة ١٩٠٢ • وقد نشرت في مجلة المنار سنة ١٩١١ ، على أن قضية الأسلوب السهل الى أبعد حدود السهولة في التأليف لم يتركها زيدان بلا توضيح لها أو تعقيب عليها في الموضوع الذي تحدث فيه عن شروط التأليف ، وقد أسماه « الأسلوب العصري » الذي (لا يشذ عنه الا المتفانون في المحافظة على القديم) •

وقد حرص زيدان في مؤلفاته على أن يكشف عن أغراض تأليفه • ففي « تاريخ آداب اللغة العربية » يوضح لنا غرضه من تأليف هذا الكتاب بقوله : (وقد ألقنا هذا الكتاب للناشئة العربية أو طلاب هذا اللسان الذين يريدون الوقوف على العلوم العربية وأماكنها للمطالعة أو التأليف ، أو يعوزهم درس موضوع أو الكتابة فيه ، ولا يعرفون مظانه • وقد عرفنا حاجة الناشئة الى ذلك من الأسئلة الكثيرة التي تتوالى علينا من هذا الثقيل •

فربما رغب أحدهم في درس تاريخ أمة أو دولة أو موضوع من المواضيع الاجتماعية أو الأخلاقية أو اللغوية ، وأحب الاطلاع على ما قاله العرب فيه ، ولا يدرى من ألف فيه منهم ، وهل ما ألفوه لا يزال باقيا ، وما هي قيمته بالنظر الى سواء في موضوعه ؟ وهل طبع ؟ وأين ؟ واذا لم يطبع فأين يوجد ؟ الخ) •

ويلاحظ الناظر في مؤلفات جرجي زيدان أنها تمتاز بذكر

المراجع والمصادر • وقد تعود الرجل الرجوع الى المصادر فعز عليه أن يسقطها من حسابه حتى وهو يؤلف رواياته التاريخية ، مع أن الروايات في الغالب لا تحتاج الى تسجيل قائمة بمراجعها ، ولكن هذا يؤكد غلبة الصفة العلمية ، ونزعة العلماء الأصلاء فيه • وهو يصدر كل رواية من « روايات تاريخ الاسلام » بذكر قائمة المراجع التي أفاد منها في تأليف روايته ، ففي رواية « فتاة غسان » يحشد حشدا هائلا من كتب المراجع ما بين عربية وأجنبية ، كالطبرى ، وابن الأثير ، والمسعودى ، والمقرئى ، والنويرى ، وياقوت الحموى ، وابن هشام ، وابن خلدون ، والواقدي ، وجون مري ، وسيريل ، ونوركهارت ، وفوشيه ••• وغيرهم • وسنتناول موضوع المصادر والمراجع مفصلا في فصل آخر من كتابنا هذا ، وفاء بحق البحث في موضعه • على أن قضية المراجع والمصادر لا بد أن تأتي في فصل يتناول مناهج التأليف عند جرجى زيدان ، كما أن قضية منهجه التاريخى ستأتى في فصل خاص •

ولما كان زيدان كثير التناول للمصادر الأجنبية التى كتبها أهل الاستشراق ، فقد أفاد منهم العقلية التنظيمية للتأليف ، والتسلسل للموضوعات ، والترتيب الدقيق ، وجمع الأشباه والنظائر والوصول منها الى استنتاج عام • ويتجلى ذلك بوضوح فى كتابيه العظيمين : « تاريخ التمدن الإسلامى » و « تاريخ آداب اللغة العربية » • وتلاحظ هذا التنظيم من مجرد القاء نظرة على أبواب كتاب تاريخ

التمدن الاسلامى • ففى بحثه عن الجند الاسلامى تأتى هذه المسائل متعاقبة فى فصول متوالية من الكتاب : الجند وتوابعه ، جند الروم ، جند العرب ، تنظيم جند العرب ، جند الاعاجم فى الاسلام ، ديوان الجند ، أعطيات الجند ، عدد الجند ، اللواء أو الراية •

ومن مناهج زيدان فى تأليفه تشقيق المسائل وتوزيع التفريعات والدقائق فى الموضوع الذى يعالجه • فهو حين يتناول موضوعا متكاملا يلقي عليه أضواء من فكره الواسع ، ويفرعه الى قضايا ومسائل وفصول جانبية لا يفتن لمثلها الا الراسخون من العلماء • وفى طبيعته الخاصة ومزاجه الفكرى شىء كثير من هذا ، على أنه قد أفاد من صنع المستشرقين والأجانب فى هذا الباب ؛ فهو يفتق المسائل فى الموضوع الرئيسى تفتيقا عجيبا ؛ ففى موضوع « نظام الاجتماع فى العصر العباسى » يفرعه الى المسائل الآتية : طبقات الخاصة ، أتباع الخاصة ، الخدم ، الأرقاء ، الحصيان ، الجوارى •

واذا كانت الفهارس للموضوعات فى مؤلفات زيدان منسقة ومقسمة أحسن تقسيم بحكم التنسيق الحسن فى موضوعات الكتاب نفسه ، فانه قد رأى أن اتساع الموضوعات وغزارتها ، والمأمها بعصور الأمة العربية فى تاريخها الطويل منذ الجاهلية الى اليوم ، وكثرة الأسماء والأعلام فيها ، وغزارة أسماء الكتب والمؤلفات التى وردت فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، رأى أن ذلك كله يقتضى عمل فهرس عامة للكتاب تكون مستقلة فى كتاب قائم بذاته،

حتى يسهل الانتفاع بهذه الموسوعة الأدبية الضخمة ، وحتى تكون دائما في منال من يريد الاطلاع عليها ، والبحث فيها ، والرجوع اليها • فكان من ذلك فهرس (١) عام للموضوعات والأعلام وأسماء الكتب • وقد طبع هذا الفهرس سنة ١٩٢٢ • ومن المؤسف أن الطبعة الأخيرة المحققة من هذا الكتاب بقلم الدكتور شوقي ضيف وتعليقاته الثمينة لم يصدر لها فهرس عام ييسر الانتفاع بها على الباحثين •

بقي ان نقول ان عناوين المؤلفات التي كتبها جرجي زيدان قد تخلصت جملة من السجع الثقيل الذي كان ظاهرا في مؤلفات القرن التاسع عشر وما قبله من قرون • وقد كان على مبارك باشا من السابقين الى هذا التجديد والتخلص من سجع العناوين مع أنه توفي سنة ١٨٩٣ أى قبل ختام القرن التاسع عشر بسبع سنين ، وان كان الشيخ رفاعه الطهطاوى المتوفى سنة ١٨٧٣ لم يخلص من الأسجاع في عناوين مؤلفاته ، ككتاب « مواقع الأفلاك » ، في أخبار تليماك ، و « قلائد المفاخر » ، في غريب عوائد الأوائل والأواخر ، بل نجد أمين فكرى « باشا » المتوفى ١٨٩٩ يؤلف كتابا في رحلته الى أوروبا عنوانه : « ارشاد الألبا » الى محاسن أوروبا ، ولعل أمين فكرى قد أبقى هنا على العنوان المسجوع الذى وضعه والده عبد الله فكرى

(١) أشار زيدان الى نيته في عمل هذا الفهرس في مقدمة الجزء الاول من هذا الكتاب ، وأتجزه بالفعل بعد ذلك .

للكتاب ، فلما مات الوالد ، أكمل ابنه الرحلة ، ولم يغير من عنوان الكتاب شيئاً . . . ، بل أبقاه على سجيته .

ولا تترك هذا الفصل الذى جلونا به زيدان المؤلف دون أن نختمه بإشارة الى موقفه الصحيح ومكانه الحقيقى فى التأليف .
أكان زيدان باحثاً أصيلاً مبتكراً ، أم كان محاكياً مقلداً ؟ ويتهمه المستشرق كراتشكوفسكى بأنه (لم يكن بالباحث المبتكر) (١) .
وهى تهمة كبيرة يعوزها شيء من الانصاف والتوضيح . فإذا كان كراتشكوفسكى يعنى أن زيدان قلد المستشرقين فى طريقة التأريخ للأدب العربى ، وفى طريقة التأليف عن حضارة العرب والإسلام ، وأفاد من مصنفاتهم التى كانت مطبوعة فى عهده ، كما أفاد من مناهجهم وطرق بحثهم فإن ذلك حق لا ريب فيه . ولكن زيدان كان يضيف على ما ينقله ويضيف اليه اضافات جديدة لم يفتن لها الغربيون . ويكفى أن محرر مادة « زيدان » فى دائرة المعارف الإسلامية - وهو كراتشكوفسكى نفسه - يقرر أن زيدان أضاف الى ما أخذه عن الأوربيين فى كتابه « تاريخ التمدن الإسلامى » كثيراً من المعلومات التى استقاها من المصادر العربية ، وأكمله بما يعرفه عن الحياة الحديثة فى الشرق . فزيدان قد قلد المستشرقين وجاراهم ولكنه وسع نطاق مباحثه وموضوعاته ، وتفتحت أمامه مسائل للبحث لم يتناولها غيره ممن سلك طرائقهم .

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

ولا يعاب زيدان بأنه حاكي أساليب الأوربيين في تاريخ الأدب العربي ، وفي تاريخ التمدن الاسلامي ، وفي رواياته التاريخية ، فان ملابس عصره وظروف زمانه في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر ، وفي العقد الأول من القرن العشرين كانت تقتضى التقليد والأخذ عن السابقين في ميادين الأدب والتاريخ والقصة ، بل في ميادين كثيرة من الحياة يومئذ . فلو لم يظهر زيدان لظهر غيره . • ويكفيه أنه ارتاد الطريق لمن جاءوا بعده • وريادته في هذا البلد تشبه من وجوه كثيرة ريادة الدكتور يعقوب صروف في علوم الطبيعيات والفلسفة . فكل منهما امام في هذا الميدان وسابق فيه .

المؤرخ ومنهجه التاريخي

كان جرجي زيدان مؤمنا بقيمة علم التاريخ وأهميته ومكانته بين سائر العلوم . وقد عبر عن تقديره الصحيح للتاريخ في مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » حيث يقول انه عارف بما يترتب عليه من اصلاح الشئون ، وأنه أكثر ارتباطا بمصالح خاصة الناس منه بعامةهم، وأن أكثر الناس حاجة اليه هم قادة التمدن ورجال السياسة وكبار المصلحين . ومن هنا نشأت ظاهرة ايعاز ولاية الأمور في الأمة العربية الى علمائها أن يضعوا في التاريخ كتابا . بل لاحظ زيدان أن عددا غير قليل من حكام العرب والمسلمين قد شاركوا في تأليف التاريخ ، غير مباينين بما يتطلبه ذلك من عناء الجمع ، وطول البحث .

ولم يكتب زيدان التاريخ بلا منهج مرسوم ولا خطة محددة . وانما كتبه عن طول ممارسة واطلاع على مناهج الغربيين ومؤلفاتهم

فى هذا الباب • فأفاد منها كثيرا • وباعد قدر الامكان ما بينه وبين طرق قدماء المؤرخين العرب ، فهى طرائق لم تكن متمشية مع التطور العلمى والتقدم الحضارى الحديث •

ولقد تناول جرجى زيدان فى مجاله التاريخى نواحى متعددة من تاريخ العرب والاسلام ، فكتب فى تاريخ الحضارة الاسلامية كتابا ضخما هو « تاريخ التمدن الاسلامى » ، وكتب فى التأريخ للأدب العربى كتابه المشهور بين رجال الأدب ، وكتب فى التاريخ العام من القديم الى الحديث ، وكتب فى تاريخ مصر من أقدم الأزمنة الى وقته كتابا مشهورا •

والحق أن كتابه فى التمدن الاسلامى كان شيئا جديدا ، فما ألف الناس عندنا أن يقرءوا فى الحضارة الاسلامية أو يصادفوا من كتبوا عنها • فان مظاهر التمدن والحضارة العربية لم تكن منشورة فى كتاب مستقل منذ دون العرب التاريخ ، ولكنها كانت أخبارا وطرائق مبعثرة هنا وهناك فى كتب التاريخ العام ، والطبقات ، والأدب ، والخراج ، والحسبة ، والمحاضرات ، والنوادر ، وغيرها • فاتجه زيدان الى التأليف فى هذا الموضوع الجديد الطريف ، وأخذ يجمع أشعثاته ، ويلم مادته من كل كتاب أو مصدر يقع له • وما أصدق الدكتور حسين مؤنس وهو يقول فى مقدمة الطبعة الأخيرة لكتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » : (وقد تهيب جرجى زيدان التأريخ للحضارة الاسلامية ، ووصف شعوره هذا فى مقدمة

الطبعة الأولى للجزء الأول من تاريخ التمدن الإسلامى • وكان محققا فى ذلك التهييب ، فان الميدان كان مجهولا على أيامه ، بل كان فن التاريخ للحضارات جملة فنا جديدا فى طور التكوين فى العالم كله اذ ذاك) •

وانصافا للمحق وتجلية للموضوع نقول ان كتاب التمدن الإسلامى لزيدان قد صدر فى أولى طبعاته سنة ١٩٠٢ أى فى القرن العشرين ، وقد شهد القرن التاسع عشر عدة كتب لمستشرقين أجانب ألفت فى الموضوع نفسه • فان جوستاف لوبون كان قد أصدر كتابه « حضارة العرب » فى سنة ١٨٨٤ ، أى قبل كتاب زيدان بثمانية عشر عاما ، كما ظهرت كتب فى الموضوع نفسه للمؤرخ سيديو ، وفون كريمير ، وجولد تسيهر • والحق أن كتاب سيديو كان قد ترجم الى العربية مختصرا بإشراف على باشا مبارك ، ثم أعاد الأستاذ عادل زعتر ترجمته من سنوات • وقد سجل كراتشكوفسكى فى ترجمته لزيدان اعتماده على المصنفات الأوربية المشهورة للثلاثة الذين أشرنا اليهم ، وان كان لم يشر الى أفادته من جوستاف لوبون • ويشير المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال الى جرجى زيدان حين نظمته فى سلك مؤرخى القرن التاسع عشر المصريين الذين تأثروا بالمنهج العلمى الحديث الذى لاحظوه فيما قرأوا أو درسوا أو ترجموا من كتب التاريخ الأوربية •

وقد جاء اهتمام زيدان بتاريخ الحضارة الإسلامية نتيجة إيمانه

بأن تاريخ الأمة الحقيقي إنما هو تاريخ تمدنها وحضارتها لا تاريخ حروبها وفتوحها ، كما يقول في مقدمة كتابه • وجاء اهتمامه بتاريخ الاسلام - على وعورته ومشقته - نتيجة لاعتقاده بأنه من أهم التواريخ العامة (لأنه يتضمن تاريخ العالم المتمدن في العصور الوسطى ، أو هو حلقة موصولة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه أشرق التمدن الحديث) (١) •

ولم يكتف زيدان باهتماماته الكثيرة بالتاريخ العام والتاريخ الحضارى الاسلامى ، ولكنه اتجه الى التاريخ القومى للبلاد منذ اختار مصر وطنه بعد وطنه الأول لبنان • ويقرر لنا الرجل فى لهجة الأسف والاستغراب أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا عن مصر من اعتنى بوضع تاريخ مستوف لها على أسلوب قريب من فهم العامة ورضى الخاصة تتعاقب فيه الحوادث بتعاقب السنين ، مع علاقة كل ذلك بالدولة الاسلامية عموما ، وسائر الدول المعاصرة • كما أبدى صاحبنا استغرابه من أنه لم ير بين مدارس القطر المصرى مدرسة واحدة تعنى بهذا التاريخ الذى هو تاريخ بلادها (٢) •

ومن مناهج زيدان فى تأليفه التاريخى ما ذكره هو بنفسه - ولم نستنبطه - فى مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٢ طبعة أخيرة ..

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ •

فهو يقرر أنه نظر الى المادة التاريخية نظر الناقد ، فلم يذكر حادثة
الا أسندها الى عللها وأسبابها ، وبين ما نتج عنها ، وذكر علاقتها
بما بعدها •

وكان يجمع النصوص المختلفة الواردة في موضوع واحد
مهما تنوعت وكثرت مواردها ، ثم يسلط عليها ذهنه كما يقول
المرحوم أحمد أمين ، ويربط ما بين بعضها بعضا ، ويستخرج من
ذلك كله صورة كاملة أو حكما عاما (١) •

ولما كانت الروايات حول الموضوع الواحد تختلف بحسب
أهواء رواتها وميولهم ومبلغهم من صدق الرواية وكذبها ، فانه الى
على نفسه أن يعتمد على أصح الروايات ، وأصدق الكتاب من ثقات
الرجال في المشرق والمغرب (٢) ، وأن يعرض ذلك كله ويطبقه
على أحكام العقل ، فما أجازة العقل أخذه ، وما لم يقبله العقل
رفضه •

ولم يعزل زيدان شيئا من الحاضر عن الماضي في مناولاته
التاريخية ، فانه كان حريصا دائما على أن يربط بين القديم
والحديث • وقد صنع هذا في كتابه « تاريخ مصر الحديث » فانه
رأى أن لا تتم الفائدة من الكتاب الا اذا جعل في مقدمته له ملخص

(١) الكتاب الذهبي لللال سنة ١٩٤٢ •

(٢) تاريخ مصر الحديث ص ٤ •

تاريخ مصر القديم ربطا للحوادث بعضها ببعض • وكذلك فعل في تاريخ التمدن ، فإنه في الموضع الذي تحدث فيه عن رواتب الخلفاء والعمال والوزراء في العصور الإسلامية المتعاقبة لم يفته أن يتحدث عن رواتب الأسرة المالكة في إنجلترا ، ورواتب الأسرة الخديوية في مصر ، على سبيل المقارنة والربط ما بين الحاضر والماضي •

ولم يكتف زيدان في التاريخ بالسماع والقراءة في الكتب والنقل عنها ، ولكنه اتخذ منهج « المعاينة » ، وخاصة حين يتحدث عن الآثار والمشاهد • فهو يراها بعينه ، ويتكلف في الوصول إليها وقتا ومالا وسفرا ومخاطرة ، حتى تكون صفته لها صفة الأمين • وتنقل من عبارته في ذلك قوله (١) : (وقد عانيت - اتعابا لمعدن التأليف - بتفقد الآثار العربية بنفسى ... فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها ، ولا سيما ما كان منها قديما كجامع عمرو ، وجامع ابن طولون ، والجامع الأزهر ، وجامع السلطان حسن ، وجامع السلطان برقوق ، وجامع قايتباي ، وجامع الغورى وغيرها • وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها ، وتسلفت ما صعب مسلكه منها ، ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها ...) •

وزيدان في هذا المنهج لا يزيد على ما فعله الجاحظ ، وما أوصى به مؤرخنا ابن خلدون من المشاهدة والمعاينة بالنظر وعدم

(١) تاريخ مصر الحديث ص ٤ - ٥ •

الاكتفاء بالنسماع ، والنقل ، فان ذلك مدخل للتهويل والتشويه وعدم الضبط . ويشير ألياس زخورة الى ما صنعه زيدان في هذا الباب فيقول : (وتفقد بنفسه كل الآثار المصرية - على ما في ذلك من المشاق - ليكون وصفه لها مطابقا للواقع) (١)

والحق أن من يتصدى لكتابة التاريخ يتعرض لكثير من المعاناة والمشقة ، سواء أكان باحثا ومنقبا في المصادر والمراجع ، أم معاينا للآثار والمشاهد بعينه . وقد عانى المؤرخ الإسلامى المشهور رفيق العظم - صاحب « أشهر مشاهير الاسلام » - مثل الذى عناه جرجى زيدان في كتابة تاريخ العرب والاسلام ، فكتب كلمة يصف فيها طريقة زيدان وفضله على الحضارة العربية قائلا (اننى عانيت من تاريخ العرب ما يعانىه المؤرخون ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاد الحوادث والأخبار ، فلم أر أحسن من الأسلوب الذى اتبعه فى كتبه المرحوم جرجى زيدان ، ولا أدق ترتيبا للمواضيع واختيارا للحوادث ، خصوصا فيما يتعلق بالمدنية الاسلامية ، فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجى زيدان على التاريخ العربى ببيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية وتاريخها) (٢)

وقد أدرك جرجى زيدان قيمة الرسوم والصور فى المؤلفات

(١) مرآة العصر ص ٤٦١ .

(٢) مجلة الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ ، والكتاب الذهبى للهلال

سنة ١٩٤٢ ١٠

الحديثة ، فكان بحق من أوائل المؤلفين المعاصرين الذين اهتموا
بإستغلال ذلك فى مؤلفاتهم • ولسنا هنا بسيل التاريخ لادخال
الصور والرسوم فى طباعة الكتاب العربى ، فليس هنا موضعه ؛
ولكن الذى نريد أن نقرره أن زيدان قد توسع فى الجمع بين النص
وبين الصورة أو الرسم الذى يوضحه أو يمثله • وقد امتلأت كُتبه
بهذه الصور واحتشدت احتشادا يلفت نظر المطالع لأول وهلة ،
ففى « تاريخ مصر الحديث » مثلا نرى صورا كثيرة للفراعنة ،
والنقود الاسلامية بوجهيها، وأبراج الحصار عند العرب، والمنجنيقان
لرمى النبال ، بل نرى صورا ورسوما لصالح الدين الأيوبى ؛
وسليمان القانونى ، ووالى مصر التركى فى مؤكبه بالقرن العاشر
الهجرى • وقد اعترف زيدان فى مقدمة كتابه هذا بأنه زينه بنيف
ومائتين من الصور والرسوم • وهو عدد هائل فى كتاب كهذا •
ولما كانت الخرائط فى كتب التاريخ لا تقل أهمية عن الصور
والرسوم فقد حرص زيدان على أن يزود بها دائما مؤلفاته
التاريخية • ففى « تاريخ مصر الحديث » أربع خرائط للقاهرة فى
عصره ، ولمصر السفلى ، ومصر العليا ، والرابعة خارطة لمصر قبل
الفتح الاسلامى •

ولما كان زيدان معاصرا لأعقاب الثورة العربية ، فقد دخل
الاسكندرية سنة ١٨٨٣ وآثار الاحتلال الانجليزى فيها شاهدة ،
كما كان مشاركا فى الحملة الانجليزية على السودان بطريق النيل،
فانه قد أسهم فى تدوين الحوادث بأمانة وبعد عن التحيز ، وحرص

شديد • والحق أن ظروف ذلك العهد كانت تقتضي من المؤرخ الحذر الى حد بعيد • وعلى الرغم مما أُلزم به زيدان نفسه من الدقة والضبط والحيدة المطلقة في كتابة التاريخ فإنه لم يسلم من النقد والالتهام بالبعد عن صفات المؤرخ • فقد قال عنه الدكتور محمد حسين هيكل في « الجريدة » سنة ١٩١٢ : (••• زيدان كان أحرى الناس - على سعة معارفه التاريخية - بأن يختط هذه الطريقة ، ويرمى لهذا الغرض • وأول المطلوب من المؤرخ الذي يرمى لهذا الغرض أن يتحرى في التاريخ الذي يكتب كل دقيقة وجليلة ، وأن يفسر الحوادث بالدقة والضبط • وقد رأينا أن صاحب تاريخ آداب العرب لم يقم بذلك على الوجه الأكمل (١) كما اتهمه مرة أخرى بأنه (لم يدخل الى روح العرب لكي يستطيع أن ينشرها أمام نظره ويفتش فيها ويعرف دقائقها ••) (٢) •

ويخيل الى أن الدكتور هيكل كان متأثرا في هذا النقد بالحملات العنيفة التي شنّها المصلح الهندي الشيخ شبلى النعماني ، وشنّها خصوم زيدان من المحافظين ليحولوا بينه وبين التدريس في الجامعة المصرية القديمة •••

بقيت لنا كلمة حول زيدان المؤرخ وزيدان الأديب • وهو موضوع يثير كثيرا من التساؤل ، فقد ألف زيدان في تاريخ الأدب العربي ، وألف في القصص التاريخية ، وألف في التاريخ ، فهل

(١) في أوقات الفراغ لمحمد حسين هيكل ص ٢٢١ •

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ •

نعده مؤرخا أم أديبا ؟ وترك زيدان الروائي لأنه يتأرجح بين
الجهتين : ومن الطريف أن تختلف النظرة الى زيدان بين الادب
والتاريخ . فالأستاذ نسيم نصر ينشر في مجلة الأديب عدد ١٢
سنة ١٩٥٠ بحثا طريفا يؤكد فيه وفي عنوانه أن جرجي زيدان
كان أديبا في الغالب ، وان عد من المؤرخين . ولكننا نجد الأستاذ
أنيس المقدسي يقرر في معرض دراسته للرواية العربية أن زيدان
مؤرخ أكثر منه صاحب فن (١) . على حين يقرر الدكتور حسين
مؤنس أن اهتمامات جرجي زيدان الأولى كانت بالأدب أولا ثم جاء
التاريخ بعد ذلك شيئا فشيئا . ومن هنا جاء التحول عند زيدان من
الأدب الى التاريخ (٢) .

والذى نميل اليه أن زيدان لم يكن أديبا خالقا من أصحاب
الفن الأدبي ، وليس من أصحاب الأساليب الأدبية المتميزة ، كما
كان مصطفى المنفلوطي ، وأحمد حسن الزيات ، والشيخ عبدالعزيز
البشرى ، ومصطفى صادق الرافعي وأضرابهم ، ولم يكن في القصة
صاحب فن قصصى بقدر ما هو مؤرخ يعتمد على القصة لينشر بين
العامة معارفه التاريخية . ولكنه كان باحثا أديبا ومؤرخا للأدب
العربي ورائدا في تاريخ الآداب العربية ، وحسبه في ذلك المجال
أنه كان سابقا ، وأنه أتى فيه بما لا ينكر فضله على مر العصور .

(١) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١٦ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي . الطبعة الاخيرة . ج ١ ص ٧ .

كاتب التراجم

ان فصلا عن جرجى زيدان المؤرخ لا بد أن يعقبه فصل عن جرجى زيدان كاتب التراجم • فان كتابه « تراجم مشاهير الشرق » يعد من المراجع الهامة التى يستأنس بها اليوم كل باحث وأديب حين يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر •

والحق أن أعلام الشرق فى هذا الكتاب ليسوا من الكثرة والأهمية بحيث يشاركون فى أهمية هذا الكتاب • فهم معدودون على أصابع اليد ، ومنهم ناصر الدين شاه ايران ، وعبد الرحمن أمير الأفغان ، ومنليك ملك الحبشة ، وتبى هسى أمبراطورة الصين ، وعلى بن حمود سلطان زنجبار ، ولى هونغ تشانغ ، والمركيز أيتو اليابانى ، وقد وضعهم على أنهم يمثلون الملوك والأمراء ورجال

«الأدارة والسياسة فى الشرق فى القرن التاسع عشر» ، أما بقية
«الأعلام فى هذا الكتاب الجليل فهم مصريون وعرب يختلفون بين
رجال الأعمال ، وأهل الإصلاح ، رجال السياسة والادارة ،
وأركان النهضة العلمية ، والمنشئين وكتاب الجرائد ، وسائر رجال
العلم والأدب ، والشعراء » •

ولم تكد تفلت شخصية عربية من شخصيات القرن الماضى الا
ترجم لها زيدان على طريقته التى سيأتى وصفها • وقد راعى بالطبع
أهل الشهرة ونباهة الذكر ممن ترجم لهم ، والا فان ذلك القرن
كان مملوءا بشخصيات كثيرة أخرى لم يجد لها مؤرخنا محلا فى
كتابه • ولن نسأل جرجى زيدان : لم اخترت من الرجال هذا ،
وأبعدت ذاك ؟ فللمؤلف فى هذا الميدان حججه وعذره وأسبابه
الوجيهة • فقد ترجم الأستاذ يوسف أسعد داغر فى الجزء الثانى من
كتابه « مصادر الدراسة الأدبية » لعشرات من الأعلام الراحلين
حتى سنة ١٩٥٥ ، ولكنه ترك عشرات آخرين لم يترجم لهم ،
وجعل بأسمائهم ثبنا فى ذيل الكتاب واعتذر من اسقاط ترجماتهم
(بعد أن تضخم حجم الكتاب) •

وكتاب زيدان فى التراجم يعد من كتب التراجم العامة التى
يجمع فيها المؤلف بين أعلام تختلف طبقاتهم ، فهو ليس تراجم
للشعراء وحدهم كما فى طبقات الشعراء ، وليس تراجم للصحافيين
وحدهم كما فى طبقات رجال الصحافة ، وليس تراجم للأدباء

وخدمهم كما فى طبقات الأدباء ، ولكنه جمع من رجال القرن الذى
يترجم لرجال المشهورين مجموعة تتفق فى الشهرة ، والمنفعة
العامة ، وتختلف فى الفن الذى تمثله .

وتراجم جرجى زيدان مثل بقية كتبه ، نشرت على هيئة
فصول فى مجلة الهلال ، وفى كل عدد شخصية يترجم لها ويقدم
لقراء الهلال سيرتها وحياتها ، ثم يجمع هذه الفصول فى نهاية الأمر
فى كتاب مستقل ، كما فعل فى تاريخ التمدن الاسلامى ، وآداب
اللغة العربية وغيرهما . وكان الناس من قراء الهلال يتقبلون هذه
التراجم بقبول حسن ، ويقبلون على قراءتها فى شوق وتلهف .
واقترح عليه لفيف من القراء أن يؤلف من تلك التراجم وأمثالها
كتابا على حدة ، مع ما تقتضيه من الرسوم ونحوها ليسهل الاطلاع
عليها والاعتبار بها (١) .

وقد قصد زيدان من ترجماته لطائفة من رجال الشرق غير
العرب أن يكون الشرق كله ممثلا فى كتابه ، وأن يعرض من
مظاهر السلوك والعمل عند هؤلاء الذين لا يعنينا تاريخهم - لبعدهم
عنا - ما يكون فيه أحسن الأمثلة والنماذج على النجاح فى الحياة .
ولعله كان هنا - بوحى خفى - متأثرا بقراءته فى كتاب « سر
النجاح » الذى كان من كتب مطالعته الأولى ، فقد كان فيه تراجم
لرجال من الغرب والشرق نجحوا فى الحياة بعد ما كابدوه من

(١) كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » المقدمة ، ص ج .

عناء ... ويبدو لنا تشبُّه بأسرار النجاح فيما كتبه مثلاً عن سليم صيدناوى ، فقد عقد بحثاً لشروط النجاح ، وأساس النجاح فى خلال الترجمة •

وقد توسع زيدان فى المراد من لفظة « الشرق » ، فلم يقتصر على رجال الشرق العربى ، وهم الذين يهتم بهم قراء الكتاب من العرب ، ولكنه مضى وأوغل فى الشرق حتى بلغ الشرق الأقصى ، فترجم لجماعة من الذين وصلت إلينا شهرتهم من رجال ايران ، والهند ، والصين ، واليابان •

وجرى زيدان فى الترجمة للمشاهير على شأنه المعروف من التحرى والضبط ، ولم يكتف بالنقل والسماع فى الترجمة للأموات، ولكنه فى الترجمة للأحياء من معاصريه اعتمد على المعاينة والخبرة والمعرفة الشخصية ، وندعه يقول فى هذا بعبارة : (وقد بذلنا الجهد فى تحرى أعمال هؤلاء المشاهير ومناقبتهم من أوثق المصادر ، وأصدق الروايات ، مع ما خبرناه بنفسنا ممن عاصرتهم وعرفناهم) (١) •

وتمتاز تراجم زيدان بأنه يذكر فى صدر كل ترجمة تاريخ ميلاد المترجم له ، وتاريخ وفاته • ولم يكد يخل بهذه القاعدة الا حين يترجم لواحد من الأحياء ، كما فعل فى ترجمته للخديو عباس الثانى ، أو حين لا يصل الى علمه تاريخ ميلاد المترجم له ، كما فعل

(١) تراجم مشاهير الشرق ج ٢ ص ١ من المقدمة .

فى ترجمته للمعلم جرجس الجوهري الذى كان كبيرا للمبشرين
فى عهد محمد على ، والمعلم غالى الذى كان كبير الكتاب فى عهد
محمد على ، والشيخ أمين الجندي الحمصي أشهر شعراء الغناء فى
سورية ...

ولم يكن لزيدان طريقة موحدة فى كتابة تواريخ المواليد
والوفيات للرجال ، فتارة يكتبها بالتاريخ الهجرى وحده مولدا
و وفاة ، كما فى ترجمته لأحمد عرابى ، وجواد باشا ، والسيد
جمال الدين الأفغانى ، والسيد عبد الله النديم • وتارة يكتبها
بالتاريخ الميلادى وحده مولدا و وفاة ، كما فى تراجمه لأمين شميل،
وأمين باشا فكرى ، والشيخ خليل اليازجى ، ووالده الشيخ ناصيف
اليازجى ، وبطرس البستاني الموسوعى الشهير • وثالثة يجمع بين
التاريخين الهجرى والميلادى - وأكثر ما يكون ذلك فى سنة الوفاة
- كما فى ترجمته للشيخ محمد العباسى المهدي ، فقد ذكر تاريخ
وفاته سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٧) ، وكما فى ترجمته لعبد الباقي
العمري شاعر العراق ، فقد ذكر تاريخ وفاته بالهجرى سنة ١٢٧٨،
ووضع بجانبه التاريخ الميلادى المقابل ل سنة ١٨٦٢ م •

وكان زيدان مترجم الرجال حريصا على ايراد مؤلفات
المترجم لهم - ان كانوا من أصحاب المؤلفات - بعد ايراد سيرة
حياتهم • ونجد ذلك فى كل تراجمه لرجال النهضة العربية
بلا استثناء • واذا كان ثبت هذه المؤلفات ليس جامعا ، فانه على كل

حال يمدنا بحصيلة كبيرة من مؤلفات من نود الحصول على تراجمهم .
والكتاب من هذه الناحية مصدر لا بأس به لمعرفة تأليف أعلام
العرب في القرن الماضي . وان كان لا يمدنا بمؤلفات من يترجم لهم
بأكملها . ونلاحظ هذا - مثلا - في ترجمة للشيخ يوسف الأسير ،
فقد ذكر من كتبه : «رائض الفرائض» في الفقه ، و « شرح أطواق
الذهب » ، ... للزمخشري ، ولم يزد عليهما كتابا ، مع أن مؤلفات
الأسير تبلغ ثمانية ، كما أثبتها يوسف داغر في « مصادر الدراسة
الأدبية » ، (١) .

واذا كان المترجم له شاعرا فان زيدان لا يكتفى بالإشارة الى
شاعريته ومكاته من الشعر ، ولكنه يتبع ذلك بإيراد النماذج
المختلفة من شعره ، كما في تراجمه للشيخ ناصيف اليازجي ،
وأحمد فارس الشدياق ، والمعلم بطرس كرامة ، وعبد الباقي
العمرى ، وعمر الأنسى ، والشيخ خليل اليازجي ، وعبد الله فكري ،
وأديب اسحاق . وقد يورد نماذج من الشعر على ندره في هذا
المجال .

وتختلف تراجم زيدان للرجال بين الإيجاز والتوسط
والاطالة وفق تقديره لأهمية من يترجم لهم ، أو طبقا لسهولة
المصادر عنهم ، أو لاعتبارات أخرى قد يراها الرجل . فقد بلغت

(١) مصادر للدراسة الادبية ج ٢ ص ١٢٤ .

ترجمته لمذحت باشا الملقب بأبي الأحرار خمسا وثلاثين صفحة ،
ولمصطفى كامل باشا ستا وعشرين صفحة ، وللشيخ محمد عبده
عشر صفحات ، ولأديب اسحاق سبع صفحات ، ولأمين باشا فكري
صفحتين •

والتراجم في كتاب « مشاهير الشرق » لزيدان كلها بقلمه ،
الا ترجمة واحدة لأحمد عرابي بقلم عرابي نفسه وبخط يده •
ويظهر أن الزعيم المصري رأى أن يكتب لنفسه ترجمة خشية أن
تذهب فيه آراء المترجمين كل مذهب • فبعث الى زيدان بترجمة
شخصية لحياته • فلما جمع زيدان مواد كتابه « تراجم مشاهير
الشرق » أثر - كما يقول - نشر هذه الترجمة دون سواها (١) •

ولم نلاحظ على زيدان في تراجمه شططا في الرأي ، أو
جورا في الحكم ، أو تطاولا باللسان • فلم يذكر أحدا بمثلية ،
ولا حاول أن يشير ولو إشارة خفية الى عيب من عيوب من يترجم
له • ويذكرنا في هذا بالمرحوم أحمد تيمور في كتابه (٢) للتراجم،
وكان زيدان لا يظهر من جوانب المترجم لهم الا الوجه المضيء
المشرق ، فاذا انتقد انتقد بحسن نية وعن اقتناع بالرأي ، ولكن في

(١) تراجم مشاهير الشرق ج ١ ص ٢٥٤ •

(٢) هما كتاب « أعلام الفكر الاسلامي في العصر الحديث » وكتاب
« تراجم أعيان القرن الثالث عشر » • وقد كتبنا مقدمة تحليلية في صدر
الكتاب الاول •.

عفة ونزاهة وموضوعية تامة ، كنقده - مثلاً - للزعيم مصطفى كامل الذى يقول فيه : (والذى نراه فى الفقيه - رحمه الله - أنه كان متطرفاً فى آرائه يعادى من يتقدمها أو يخالفه فيها • وإذا حمل على خصمه بالغ فى الغضب من فضله ، وقد ينكر حسناته ولو كانت ظاهرة كالشمس •••) (١) • وانتقاد زيدان للزعيم مصطفى كامل فى تطرفه هو نتيجة لما كان يؤمن به زيدان نفسه من سياسة الاعتدال لحل المسألة المصرية • فهو معتدل هنا ، كما كان معتدلاً فى حركة الإصلاح العثماني • على أن اتهم مصطفى كامل بالتطرف لا يضره ولا ينقص من قدره خردلة ، بل يزيده رفعة وتقديراً ، وما أكثر ما ينطبق على زعيمنا الراحل هذا البيت من الشعر القديم :

ان كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أنى رافضى ؟

على أن نقد زيدان لمصطفى كامل فى تطرفه الوطنى لم يمنع مؤرخنا المنصف من أن يقول فيه وفى سلوكه هذا القول الآتى : (وكان رحمه الله تزيه النفس ، عفيف الأزار ، صادق اللهجة ، طاهر الجيب ، لا يلذ له من أحوال الحياة غير التفكير فى الغاية التى وقف قواه عليها ، وهى خدمة بلاده بأشرف السبل وأنفعها) (٢) • وكان فى زيدان ميل الى وصف أشخاص المترجم لهم وحياتهم

(١) تراجم مشاهير الشرق ج ١ ص ٢٢٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢ •

وملابسهم ، فوق وصفه لصفاتهم الخلقية والعقلية والنفسية • ففي ترجمته لرفاعة الطهطاوى يقول : (وكان - رحمه الله - قصير القامة ، واسع الجبين ، متناسب الأعضاء ، أسمر اللون) • وفى ترجمته للدكتور فاندريك يقول : (كان ربع القامة ، مع ميل الى القصر ، خفيف العضل ، سريع الحركة •••) وفى ترجمته للسيد جمال الدين الافغانى بصفه بأنه (كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز ، ربة ، ممتلىء البنية أسود العينين ، نافذ اللحظ ، جذاب النظر • مع قصر فيه) والمقصود هنا بالقصر قصر النظر لا قصر القوام ، كما يدل عليه سياق الكلام بعد ذلك •

وهكذا ترى دقة جرجى زيدان مترجم الرجال فى وصف الملامح والسمات الشخصية ودقائق الأعضاء ، حتى ليخيل اليك أنه يقدم صورة دقيقة تامة الدقة لمن يترجم له •

وأعجب ما رأيناه فى تراجم زيدان أنه كان يذكر فى غير قليل من الأعلام أماكن دفنهم ، كما فعل فى ترجمته لحليل اليازجى ، والشاعر العراقى عبد الغفار الأخرس (الذى دفن فى مقبرة الأمام الحسن البصرى خارج قصبة الزبير) ، والمفسر الكبير الشهاب الألوسى صاحب « روح المعانى » (الذى دفن قرب والده) ، والشيخ يوسف الأسير الذى (دفن فى مقبرة الباشورة ببيروت) ، وإن كان لم يذكر لنا مكان دفن عبد الرحمن الكواكبي الذى ترقد جثته الآن فى مقابر الوزير بالقاهرة •

رائد فى تاريخ الأدب

يذكر جرجى زيدان فى مقدمة الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » أنه أول من وضع كتابا متكاملا فى تاريخ الأدب العربى ، وأنه أول من سمى هذا العلم بتاريخ آداب اللغة العربية .

وإذا كان كتاب زيدان فى الآداب العربية قد ظهر على هيئة كتاب قائم بذاته على حدة فى سنة ١٩١١ ، فإن هذا لا يعنى أن هذا التاريخ كان أول استعمال لعبارة تاريخ الآداب العربية ، ففي سنة ١٨٩٤ وهى السنة الثانية من تاريخ صدور مجلة الهلال كان جرجى زيدان ينشر فصولا فى مجلته تحت عنوان « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهى الفصول التى وسعها من بعد ، وجعل منها كتابا مستقلا فى أجزاءه الأربعة الضخام . ومن هنا نستطيع أن نقول مع زيدان انه كان أول واضح لهذه التسمية . ومن هنا أيضا نستطيع

أن نقول ان كتاب جرجى زيدان يعد رائدا فى التأليف فى تاريخ
الأدب العربى على نهج لم يسبقه فيه أحد . . .

ومن الحق أن نقول ان جهدا كريما فى هذا الميدان قد سبق
به الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » ، فقد
خطا المرصفى خطوة - على صغرها - فى ميدان التأريخ للأدب
العربى على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ، ودراسة
النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا يجوز اغفالها
فى هذا المقام .

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفى تلميذه فى دار العلوم ،
المرحوم حسن توفيق العدل ، الذى تخرج فى الدار سنة ١٨٨٧ ،
أى قبل وفاة أستاذه المرصفى سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات ، فتنبه الى
ما فى التأريخ للأدب العربى حسب العصور من مزية ، وأكد هذا
المعنى فى نفسه ما أتبع له من اختياره عضوا فى بعثة دار العلوم الى
ألمانيا ، ومن اتصاله برجال الاستشراق هناك ، وخاصة «بروكلمان»
الذى كان قد وضع كتابه فى تاريخ الأدب العربى وفق العصور
وان كان لم يظهر مطبوعا الا فى سنة ١٨٩٨ . وصادفت هذه
الطريقة هوى واعجابا عند حسن توفيق العدل ، فلما عاد من ألمانيا
ليشتغل أستاذا للغة العربية فى معهد الذى تخرج فيه ، قدم هذه
الطريقة الى طلبته فى دار العلوم على هيئة مذكرات ، وأعطائها عنوانا

هو « تاريخ آداب اللغة العربية » • وقد طبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦
بمطبعة مدرسة الفنون والصنائع الحديوية (١) •

وجاء المرحوم محمد بك دياب - وهو من رجال دار العلوم
أيضا - فأصدر كتابه المعنون « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وقد
ظهر في جزئين سنة ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ • وهكذا انتهى القرن التاسع
عشر بكتب ثلاث في تاريخ الأدب العربي حسب العصور ألفها
ثلاثة : واحد من أساتذة دار العلوم ، واثنان من أبنائها المتخرجين
فيها •

ومن هذا البيان الوجيز نستطيع أن نقرر أن جرجى زيدان
كان أول مؤسس لعلم تاريخ الآداب العربية وأول مؤلف فيه
بطريقة منهجية ، وأن سنة ١٨٩٤ هي السنة الفاصلة في بدء الكتابة
في هذا الموضوع وبدء تسميته •

ومنذ الخطوة الرائدة التي خطاها زيدان في هذا الميدان في
القرن التاسع عشر جاء القرن العشرون ، وبدأ الاهتمام بالتأليف
في تاريخ الأدب العربي يظهر بوضوح • ففي سنة ١٩٠٨ صدر
كتاب للشيخ محمد حسن نائل المرصفي عن عنوانه « أدب اللغة
العربية » ، وقد رقت فيه الدراسات على وفق العصور من الجاهلية
إلى ما بعدها • وفي سنة ١٩٠٩ ظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية »

(١) مجلة الكتاب - عدد يوليو سنة ١٩٤٧ • من بحث جيد للمرحوم
الاستاذ محمد عبد الجواد •

للأستاذة محمد عاطف ، ومحمد نصار ، وعبد الجواد عبد المتعال من رجال دار العلوم ، وفي سنة ١٩١١ ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان في كتاب على حدة ، فكان ذلك تجديدا لدراسة ولعلم ظهر من قبل سنة ١٨٩٤ على يد زيدان نفسه وفي أعداد من مجلة الهلال .

ونرجو من هذا البيان أن تكون قد اتضحت للقارىء قضية « أولية » علم تاريخ الأدب العربى وأولية تسميته ، وصاحب الحق فى هاتين القضيتين هو مؤرخنا جرجى زيدان .

وقد أبان جرجى زيدان أغراضه من هذا الكتاب وطريقة تأليفه . وبعد أن فصل الأغراض الستة التى وضع الكتاب من أجلها عاد فأجمل الغرض الرئيسى من الكتاب فى قوله : (... أن يكون لهذا الكتاب فائدة عملية ، فضلا عن الفائدة النظرية ، بحيث يسهل على طلاب المطالعة معرفة الكتب الموجودة ومحل وجودها وموضوع كل منها وقيمتها بالنسبة الى سواء من نوعه . فهو أشبه بدائرة معارف ، تشتمل على تاريخ قرائح الأمة العربية وعقولها وتراجم علمائها وأدبائها وشعرائها ومن عاصرهم أو عاملهم من كبار الرجال ، ووصف المؤلفات العربية على اختلاف مواضيعها) .

أما خطة الكتاب وتقسيم موضوعه فقد وضعها زيدان فى مقدمة الجزء الأول ، وأبان أنه كان بين أمرين : إما أن يقسم الكتاب حسب العلوم ، أو حسب الأعصر . ومعنى تقسيمه حسب العلوم

أنه يبدأ بموضوع الشعر - مثلاً - فيستوفيه من أول عصور الجاهلية إلى العصر الحديث في مكان واحد • ثم يأتي بموضوع الخطابة فيستوفي الكلام فيه من أول الجاهلية إلى زماننا هذا ، ثم يأتي بموضوع كالفقه فيستوفي الكلام فيه من أول نشأته وحدوثه في الإسلام إلى وقتنا هذا • أما القسمة حسب الأعصر فيراد بها الكلام عن العلوم والفنون والموضوعات المختلفة في عصر واحد ، والانتقال إلى العصر الزمني الذي يليه وهكذا • وقد أثر زيدان التقسيم حسب العصور ، فبدأ بالعصر الجاهلي ، فعصر الراشدين ، فالعصر الأموي ، فالعباسي ، فالملغولي ، فالعثماني ، فالعصر الحديث • وهذا هو التقسيم الذي جرى عليه أكثر المؤرخين للأدب العربي بعد زيدان •

وبالطبع كان جرجي زيدان يسير على نهج الأوربيين والمستشرقين في تاريخ الآداب العربية ، وقد أفاد في هذا السيل بجهود من صنفوا في هذا الباب من الغربيين ، ولم يخف الرجل علينا شيئاً من الكتب الأوربية التي استند إليها ، وعول عليها في تأريخه للأدب العربي ، حتى يزعم للقارئ أو يوهمه بأن هذه الدراسات كانت من ثمرات فكره ، بل أعلن في الصفحات الأولى من الكتاب أسماء الكتب الفرنسية والانجليزية والألمانية التي رجع إليها ، ونهل منها ، ومن هذه الكتب كتاب سيدو المطبوع سنة ١٨٧٧ ، وكتاب هيوار المطبوع سنة ١٩٠٢ ، وكتاب غومستاف لوبون

المنشور ١٨٨٤ ، وكتاب نيكلسون المنشور سنة ١٩٠٨ ، وكتاب هامر
برجستال المنشور سنة ١٨٥٦ ، وكتاب وستفيلد المنشور سنة
١٨٨٢ ، وكتاب بروكلمان الذى ظهر سنة ١٨٩٨ ، سنة ١٩٠٢ .

واذا كان استخدام زيدان للمصادر الأوروبية ، ولمناهج
المستشرقين فى الأدب العربى وأدب الاسلام قد أفاد من ناحية ،
وزوده بسيل من المعلومات والمواد والتنظيم من ناحية ثانية ، فانه
من ناحية ثالثة قد جر عليه كثيرا من نقد الناقدين ، ويكفى بأن
الدكتور محمد حسين هيكى قد اتهمه بأنه (لم يدخل الى روح
العرب لكى يستطيع أن ينشرها أمام نظره ، ويفتش عليها ، ويعرف
دقائقها) (١) ولا يعجز كاتب عن أن يدخل الى روح العرب الا اذا
كان متأثرا بأرواح غير عربية . . . كما أن انتقادات الأب أنستاس
مارى الكرملى لهذا الكتاب فى مجلة « لغة العرب » ، وانتقادات
الأب لويس شيخو اليسوعى له فى مجلة « المشرق » كانت تنصب
على هذه الناحية (٢) ، بالإضافة الى غيرها من النواحي المتعددة .

ونستطيع أن نقول ان كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى »
لجرجى زيدان هو نوع من تاريخ الأدب العربى حسب الموضوعات
لا حسب العصور . وان كانت الموضوعات هنا ليست موضوعات
أدبية تتصل بالشعر والنثر والخطابة والكتابة والتأليف والثقافة

(١) فى أوقات الفراغ . ص ٢٢٢ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية . مادة زيدان ص ٧ .

وما إليها ، ولكنها مسائل تتصل بالحضارة والتمدن • وهى مسائل وموضوعات متعددة • وكان النهج الذى اتبعه زيدان فى الكتابين واحدا ، وان كان المرحوم أحمد أمين يرى أن الكتابة فى تاريخ الآداب العربية أشق وأعقد (لأنه يتطلب احاطة تامة ، وعلماء واسعاً بما فى خزائن الكتب فى الأقاليم المختلفة شرقية وغربية ، ويشعر بعبء هذا العمل - يعنى التأريخ للأدب العربى - من يعلم أن الأمم الإسلامية فى عصورها المختلفة من أكثر الأمم إنتاجاً للعلماء والأدباء والشعراء • وعلمائوها وأدباؤها أكثر من الناس تأليفاً وإنتاجاً ، فالتعريف بهم وبآثارهم فوق طاقات الجماعات بله الأفراد) (١) •

بقى أن نقول ان هذا النهج الجديد فى تاريخ الآداب العربية، الذى ارتاده زيدان لأول مرة مقتفياً أثر جماعة من علماء الاستشراق، قد سار عليه بعده فى القرن العشرين جماعة من أساتذة الأدب العربى والمؤلفين والباحثين منهم الأساتذة مصطفى صادق الرافعى ، ومحمد حسن نائل المرصفى ، والمرحوم محمد عاطف (٢) وزميلاه، كما سبق القول ، والمرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى فى كتابه « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ، والمرحومون محمود مصطفى ، والسباعى بيومى ، ومحمد هاشم عطية ، وأحمد حسن

(١) الكتاب الذهبى للهِلال .

(٢) نرجو أن يفرق بين محمد عاطف هذا ، وبين المرحوم محمد عاطف بركات الذى كان ناظراً لمدرسة القضاء الشرعى •

الزيات صاحب « الرسالة » ، وأصحاب كتابي « المفصل » ،
و « المجمل » من رجال وزارة التربية والتعليم ، والأب حنا فاخوري ،
والدكتور شوقي ضيف • وهي جهود تلاحق العمل العظيم الذي
بدأه جرجي زيدان ، وتتوسع في الميدان طبقا لما جد في هذا الحقل
من دراسات •••

زيدان والروايات التاريخية

من منا لم يقرأ واحدة أو أكثر من سلسلة الروايات التاريخية الإسلامية لـ جرجي زيدان ؟ ان كثيرا من كبار أدبائنا المعاصرين وكبار كتابنا ومفكرينا قد قرأوا روايات زيدان كلها لم يستثنوا منها واحدة . فهذا الدكتور محمد حسين هيكل يصرح بأن قراءة هذه الروايات قد خلقت شيئا من الألفة بينه وبين مجلة « الهلال » . وكثيرا ما كان يقرأ الملاحق والفصول التي تنشر من هذه الروايات في أجزاء متعاقبة من الهلال ، فيجد من قراءتها سرورا ، وخاصة في أثناء الأجازات ، ويجد نفسه مدفوعا الى قراءة هذه الروايات كاملة (١) .

ولقد استطاع زيدان أن يكتسب برواياته التاريخية جمهورا

(١) الكتاب الذهبي للهلال .

من القراء لا يحصى عددهم ، من أصحاب الثقافات ومن متوسطي الثقافة ، ومن يجدون في الروايات متعة وتسلية • واستطاع منذ ظهرت له أول رواية تاريخية أن يظفر برضا القراء ، مما شجعه على المضي في كتابة السلسلة حتى رواية « شجرة الدر » التي أخرجها قبل وفاته بشهور •

وعلى ذكر أولى روايات زيدان التاريخية نستطيع أن نقرر أنها كانت رواية « المملوك الشارد » التي ظهرت في أول طبعاتها سنة ١٨٩١ • ونحن هنا نثق برواية الياس زخورة (١) صاحب « مرآة العصر » وهو من أقدم مصادرنا عن الترجمة لحياة زيدان ، كما نؤكد روايته برواية صديقنا المرحوم طاهر الطناحي (٢) ، ورواية الدكتور محمد يوسف نجم الذي (٣) يقول : (أقدم زيدان على محاولته الأولى : المملوك الشارد) • ويظهر أن خطأ مطبعيا في كتاب « تطور الرواية العربية الحديثة » للدكتور عبد المحسن طه بدر قد أوقعنا في عشوة من الأمر • ففي فهرسه الزمني للروايات العربية التي ظهرت بمصر من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩٣٨ يذكر أن روايات « أرماتوسة المصرية » و « عذراء قریش » و « ١٧ رمضان » لرجي زيدان قد صدرت في ١٨٨٩ م ، وهو خطأ طباعى واضح بأدنى بصر ، وصوابه سنة ١٨٩٩ • ولو أننا

(١) مرآة العصر ص ٤٦٢ •

(٢) عصاميون عظماء • ص ٧٥ •

(٣) القصة في الادب العربي الحديث ص ١٨٨ •

تابعنا هذا الخطأ وجاريناه لكان معنى هذا أن هذه الروايات الثلاث كانت سابقة في الوجود على رواية « المملوك الشارد » ، وهو ما لم يكن .

هذا تصحيح لم نجد منه بدا . وهناك تصحيح آخر نرى من الحق ألا نسكت عليه لاعتبارات الصداقة التي تربطنا بالأستاذ الكبير أنيس المقدسى ، فقد ذكر فى كتابه « الفنون الأدبية وأعلامها » أن زيدان ترك للأجيال فى باب الرواية - أو القصة - التاريخية إحدى وعشرين (١) رواية . والصواب أنها ثلاث وعشرون .

ونجد من باب الأمانة للتاريخ أن نسجل هنا أسماء روايات زيدان التى اضطرب مؤرخو الأدب الحديث فى بيانها وعددها . فقد سجلها الأستاذ يوسف داغر عشرين رواية (٢) ، فنقص منها ثلاثاً ؛ وسجلها مترجم حياة زيدان فى آخر الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » اثنتين وعشرين رواية ، فنقص منها واحدة . ولم يعن باحث نفسه بحصرها وضبط عددها واستكمال أسمائها . وأليكم بيانها كاملة : فتاة غسان - أرماتوسة المصرية - عذراء قریش - ١٧ رمضان - غادة كربلاء - الحجاج بن يوسف - فتح الأندلس - شارل وعبد الرحمن - أبو مسلم الخراسانى - العباسة أخت الرشيد - الأمين والمأمون - عروس فرغانة - أحمد

(١) الفنون الادبية ص ٥١٦

(٢) مصادر الدراسة الادبية ليوسف داغر - ص ٤٥ .

ابن طولون - عبد الرحمن الناصر - فتاة القيروان - صلاح الدين
ومكائد الحشاشين - شجرة الدر - الانقلاب العثماني - المملوك
الشارد - استبداد المماليك - أسير المتمهدين - محمد علي - جهاد
المحيين •

ولا شك أن روايات زيدان التاريخية كانت حدثا جديدا في
القرن التاسع عشر ، فهي نشر للحقائق التاريخية الإسلامية على
سبيل الرواية تسهيلا للمطالعة كما يقول صاحب « مرآة العصر » ،
مما حدا بالكثيرين من مؤرخي الأدب الحديث أن يعدوا زيدان رائدا
في هذا الميدان • وقد أوجب له الأستاذ أنيس المقدسي حقا في أن
يلقب بامام هذا الفن في أدبنا الحديث (١) ، كما قال عنه الدكتور
سهيل ادريس (انه دون منازع خالق الرواية التاريخية عندنا) (٢)،
ووصفه الدكتور طه حسين بأنه (هو الذي نقل الى الأدب العربي
مذهبا من مذاهب الأدب الأوربي ، هو القصص التاريخي) (٣) ،
بل ذهب اثنان من رجال التاريخ عندنا هذا المذهب ، فالدكتور صالح
أحمد العلي يقرر أن زيدان كان رائد الروايات التاريخية (٤) •
والمرحوم الدكتور جمال الدين الشيال يؤكد أن (جرجي زيدان
كان أول من كتب القصة التاريخية) (٥) •

-
- (١) الفنون الادبية وأعلامها - ص ٥١٧ •
 - (٢) القصة في لبنان لسهيل ادريس ص ١٩ •
 - (٣) أعلام من الفكر والادب • ص ٨٧ •
 - (٤) الادب العربي في آثار الدارسين • ص ٤٤ •
 - (٥) التاريخ والمؤرخون في مصر • ص ٢٢١ •

على أننا لو أردنا الدقة في التعبير فإن (أولية) جرجي زيدان و (ريادته) للرواية التاريخية يجب أن تنظر إليها نظرة أخرى .
نعم : لقد كان عمل زيدان في هذا المجال مما لا ينكر عظمه وضخامته وفضله ، في ميدان كاد يكون خاليا من هذا الفن الأدبي المعين . ولكن اعتزازنا وانبهارنا بالدور العظيم الحصب الذي قام به زيدان هنا ، لا يجوز أن ينسينا حق (الأولية) لسليم البستاني ، ابن العلامة بطرس البستاني ، الذي ظهرت له في هذا المجال روايتان تاريخيتان سبقتا روايات زيدان بأكثر من عشرين عاما .
ففي سنة ١٨٧١ ظهرت قصة « زينوبيا » لسليم البستاني ، وفي سنة ١٨٧٤ تلاها ظهور روايته الثانية : « الهيام » في فتوح الشام .
ولعل أول من أنصف سليما في هذه الحقيقة الأستاذ مارون عبود الذي يقول عن الروايات التاريخية عموما : (لقد سبق الى مثلها سليم البستاني ، ولكنها لم تكن كروايات زيدان (١) فنا) ، ثم يقول عن سليم البستاني في موطن آخر : (ولعل سليما هو أول من كتب رواية تاريخية) . كما نجد الدكتور محمد يوسف نجم يقول من فصل له عن القصة التاريخية : (وأول من حاول محاولة كبيرة في كتابة هذا اللون من القصة كان سليم البستاني) (٢) . ثم يجيء عبد المحسن طه بدر بعد مارون ونجم فيقول : (ولعل ما دفع

(١) رواد النهضة الحديثة . ص ١٧١ .

(٢) القصة في الادب العربي الحديث . ص ١٧٥ .

جرجى زيدان الى التركيز على الرواية التاريخية يرجع الى بعض المحاولات التى سبقته فى هذا الميدان ، وأهمها محاولة سليم البستاني (٠٠٠) (١) .

وإذا كان زيدان فى تاريخ الأدب وتاريخ التمدن قد نقل عن الأوربيين مناهج وطرائق فى البحث والتحليل ، والاستنتاج ، والتنسيق ، والتنظيم ، فانه فى رواياته التاريخية قد نقل فنا ، لا مناهج ، واستطاع أن يسهم فى تكوين هيكل ضخم للقصة فى الأدب العربى الحديث .

ولا بد أن نرجع الى جرجى زيدان نفسه اذا أردنا أن نعرف شيئاً من آرائه فى اثاره لكتابة الرواية التاريخية ، والجمع بينها وبين دراساته الأدبية والتاريخية الجادة الرصينة . هل كان صاحبنا يهدف من وراء ذلك الى التسلية والترفيه ، أم كان يهدف الى التعليم ؟ لنستمع اليه وهو يقول فى مقدمة رواية الحجاج بن يوسف : (وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس فى مطالعته ، والاستزادة منه . وخصوصاً لأننا نتوخى جهدنا فى أن يكون التاريخ حاكماً على الرواية ، لا هى عليه ، كما فعل بعض كتبة الأفرنج ، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية ، وانما جاء بالحقائق التاريخية للباس الرواية ثوب

(١) تطور الرواية العربية الحديثة . ص ١٣ .

الحقيقة ، فجره ذلك الى التساهل في سرد الحوادث التاريخية بما يضل القراء . وأما نحن فالعمدة في رواية اعلی التاريخ ، وانما نأتى بحدوث الرواية تشويقا للمطالعین ، فنبقى الحوادث التاريخية على حالها ، وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع الى استتمام قراءتها ، فيصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ ، مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ ، من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، الا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف ، مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدنا بيانا ووضوحا بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق) .

هذا هو رأى زيدان في الرواية التاريخية ومذهبه في كتابتها ، وهو هنا يكاد يضع خطا فاصلا بين القصة وبين التاريخ ، ويجعل للتاريخ المحل الأول من الاعتبار . وأغلب الظن أن صفته كمؤرخ قد غلبت عليه وهو يكتب الرواية التاريخية ، حتى لنراه يضع في صدر الرواية من رواياته - بل وفي صفحات منها - المصادر والمراجع التي عول عليها في كتابة الرواية ، كأنه يضع مصادره ومراجعته لمبحث من مباحث التاريخ والأدب !

والذى عليه يقينى أن زيدان في رواياته لم يكن روائيا ولا هو من سبيل الروائيين ، ولكنه كان مؤرخا ، ومعلما لتاريخ العرب والاسلام ، أراد أن يعلم العرب تاريخهم بطريقة مشوقة جذابة ، وأن يحملهم على قراءة تاريخهم حملا بلا مشقة ولا استئثار ، فعمد

الى الرواية وهو ليس بموهوب فى الفن القصصى ، ولهذا امتلأت رواياته بالتفكك وتقطع الأوصال ، وفقدان الحكمة ، والاستطراد الممل ، ومحاولة التعليم ، وسرد الحوادث العجيبة المتتابعة دون اهتمام بالشخصيات •

ولم يكن زيدان جاهلا بالقواعد الصحيحة لكتابة الروايات عند الغربيين ، ويبدو من كلامه المتناثر هنا وهناك أنه عليم بهذه الأصول الفنية ، ولكن غرضه من تعليم التاريخ عن طريق الرواية كان أبعد وأعلى من فنية الرواية ، وخاصة أنه كان ينزع فى نشر العلم والتاريخ والأدب نزعة شعبية كما سيجىء •

ومن هنا يقرر أغناطيوس كراتشكوفسكى أن روايات زيدان التاريخية (لا تروق كثيرا فى نظر الذوق الأوروبى ، ذلك أن أسلوب انشائها عتيق وعاطفى بعض الشيء) •

وروايات زيدان كلها تاريخية ، الا واحدة تدخل مجال الاجتماع والعاطفة ، وهى رواية « جهاد المحيين » ، وضعناها فى آخر الثبت الذى ذكرناه آنفا ، تميزا لها من الاثنتين وعشرين رواية التاريخية • ومن رواياته التاريخية سبع عشرة رواية تتناول تاريخ العرب والاسلام حتى عصر صلاح الدين الأيوبى ، وأربع روايات تتصل بتاريخ مصر الحديث ، وواحدة تدور حول موضوع الانقلاب العثمانى • أما روايته الاجتماعية الوحيدة « جهاد المحيين »

التي ظهرت سنة ١٨٩٣ ، فبعدها بعض النقاد (من المحاولات الناجحة في القصة الاجتماعية) (١) ، وتدور حوادثها في سنة ١٨٨٧ ، وتجرى الوقائع ما بين القاهرة والاسكندرية وحلوان . وتعالج قضايا عاطفية ، وتتأزم فيها الأزمات بين الحب والزواج وصفا للواقع الذي كان يعيشه المجتمع المصري في أواخر القرن التاسع عشر . ويكاد أسلوب زيدان هنا يشبه أسلوبه في رواياته التاريخية لأن الفن القصصي عنده كان في المحل الثاني بعد تعليم التاريخ .

ولقد صادفت روايات زيدان التاريخية من الرواج والقبول ما لم يظفر به كتاب في ذلك العهد . وظلت حتى بعد وفاته تعاد طبعتها مرارا فيتلقفها الناس جيلا بعد جيل ، ولم ينقطع الطلب عليها حتى يومنا هذا ، حيث ظهرت في طبعات أنيقة بأغلفة تحمل صورة ملونة . ويؤكد كراتشكوفسكى أن كل روايات زيدان التاريخية تقريباً قد ترجمت الى الفارسية ، والتركية ، والهندستانية ، والأذربيجانية ، كما أن بعضها ترجم الى لغات شرقية أخرى غير هذه ، وكان نصيب بعضها الترجمة الى لغات أوروبية ، فترجمت رواية « العباسة أخت الرشيد » الى الفرنسية سنة ١٩١٢ مع مقدمة بقلم كلود فارير الروائي الفرنسي المشهور وتلميذ بير لوتى .

وطالما جذبت روايات زيدان التاريخية اهتمام القراء من أدبائنا

(١) القصة في الادب العربي الحديث . ص ١٢٣ .

الذين كانوا فى العقد الأول من القرن العشرين فى مرحلة الطلب للعلم • وطالما فتنتهم حتى كادت تشغلهم عن دروسهم • وما ألفت الدكتور طه حسين وهو يقول فى هذا الصدد : (ومهما أنس فلن أنسى أنى كنت فى أيام الصبا والشباب أبداً فى قراءة القصة التاريخية من قصص جرجى زيدان ، فلا أكاد أتقدم فى قراءتها شيئاً حتى أفتن بها ، وإذا هى تشغلنى عن دروس الأزهر حتى أتمها ، وإذا هى تأخذ على تفكيرى وقتاً طويلاً بعد اتمامها ••) (١)

وعلى الرغم من القبول الذى لقيه روايات زيدان فى تاريخ العرب والاسلام ، فانها لم تسلم من النقد وقت ظهورها وحتى يومنا هذا • ولم يكن زيدان يضيق بالنقد ولا يرى أنه يحط من قدر المنقود ولا من قدر الكتاب ، ولكنه دليل على قدره • ويستطيع القارئ اليوم - بعد حملات النقد التاريخية التى وجهت الى زيدان - أن يقرأ نقداً موضوعياً فنياً لروايته التاريخية ، ولروايته الاجتماعية الوحيدة فى كتابين عالجا موضوع الرواية والقصة فى الأدب العربى الحديث ، وهما كتابا الدكتورين محمد يوسف نجم، وعبد المحسن طه بدر ، فان مجال النقد والتحليل هناك أوسع وأشمل منه فى مجال محدود كمجالنا فى هذا الكتاب •

ولعل نموذجاً من نقد بعض زملاء زيدان الروائيين فى ذلك

(١) الكتاب الدعوى للهائن •

العصر يعطينا فكرة عن النقد ومفهوم القصة والرواية منذ أكثر من نصف قرن • ففي عدد الهلال من نوفمبر سنة ١٩١٤ نرى العالم الرياضى والكاتب الروائى نقولا الحداد يتناول فن الرواية عند زيدان قائلا : (فالفريد كقصصى كان يرتب القصة ، والحوادث فيها مدهشة ، وآخذة بعضها برقاب بعض ، ومنساقة كلها الى ملتقى واحد هى النتيجة التى تنهات اليها عواطف القارىء ، ومندمجة اندماجا يقررها فى ذهن القارىء كحقائق راهنة ، وما هى الا حقائق تاريخية راهنة ، اللهم الا النزر مما يختلقه من الأشخاص والحوادث قمة لترتيب القصة) (١) •

على أن كتابا ثالثا للدكتور محمود حامد شوكت لا يجوز اغفاله هنا ، فقد تناول القصة التاريخية عند زيدان ، وخلص من كلام زيدان نفسه الى الحكم عليه بأنه (لا يمثل فلسفة خاصة يصورها التاريخ ، وانما يكتفى بالجمع والتسيق واحياء الصورة احياء يسيرا يقوم على الشهرة التاريخية للموضوع وللشخصيات ، وقد وقف زيدان بذلك عند بداية طريق واصله من بعده كتاب القصة التاريخية) (٢) •

(١) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ ص ١٨٣ •

(٢) الفن القصصى فى الادب المصرى الحديث : للدكتور محمود حامد

شوكت • ص ١٤٤ •

بين الصحافة والصحافة الأدبية

الصحافة بمفهومها العام تعنى الصحف السياسية الاخبارية ،
وصحافة الرأي التى تهتم بالتعليق على الأخبار والأحداث السياسية .
وقد شهد القرن التاسع عشر مولد الصحافة العربية بما ليس هنا
مجال تفصيله • وانبثق من الصحافة نوع آخر هو الصحافة الأدبية
التي تهتم بمسائل الأدب والعلم والثقافة والفكر والفن ، ولا شأن
لها بالأخبار والحوادث والسياسة الا ما كان من معالجة بعض القضايا
السياسية الكبرى اثنى قد تهملها بعض المجلات الأدبية اكتفاء منها
برسالة الأدب والعلم •

وقد يلتقى فى شخص واحد ميلان الى الصحافة العامة
والصحافة الأدبية ، كما نجده عند الدكتور فارس نمر الذى كان
يشتغل فى صحيفة المقطم بالسياسة ، وفى مجلة المقتطف بالعلم

والفكر ، على حين اكتفى زميله وشريكه الدكتور يعقوب صروف
بمسائل العلم والفكر في « المقتطف » ، وترك السياسة لصاحبه .

ولسنا هنا بمقام التفصيل والتمثيل في هذا الموضوع الذي
يخرج بنا عن الغاية من هذا الفصل ، ولكننا سقناه لنوضح موقف
المؤرخ جرجى زيدان من الصحافة العامة بعد أن اتضح دوره
العظيم في الصحافة الأدبية باشيائه « مجلة الهلال » التي ظل
يحررها ويخدمها اثنين وعشرين عاما .

حينما هاجر زيدان الى مصر سنة ١٨٨٣ كان همه أن يلتحق
بمدرسة الطب المصرية حتي يتم دراسة الطب التي انقطعت عليه في
المدرسة الكلية الأمريكية ببيروت . وان كان قد أدى امتحانا في علوم
الصيدلة ببيروت أمام لجنة خاصة حرة بعيدة عن سلطات المدرسة
الكلية . وما كان في ذهن الفتى يومئذ أن ينصرف عن دراسة الطب
في مصر بأي ثمن ، فقد كانت تلك الدراسة أمنية نفسه . ونزل
الفتى من الباخرة التجارية التي أقلته من بيروت الى الإسكندرية
في صباح يوم من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٣ . وأقام بالثغر زمنا
يكفي لراحته من عناء الرحلة بالبحر ، ثم اتجه الى القاهرة ميمما
وجهه شطر مدرسة الطب لينجز أمامها أوراق تقديمه . غير أن
طول مدة الدراسة في القصر العيني قد حول عزمه عن صناعة الطب
جملة .

ويظهر أن القدر في هذه اللحظة كان يدبر له مسألة اشتغاله بصناعة القلم ، فوجد من نفسه دافعا لأن يشتغل بالصحافة ، ولم يكن في مصر في ذلك التاريخ صحف ولا صحافة ، الا صحيفة يومية واحدة اسمها « الزمان » يملكها رجل أرمني اسمه « علكسان صرافيان » انتهز فرصة أحداث الثورة العربية فأنشأها في مارس سنة ١٨٨٢ ، وظلت تصدر عامين وبعض أشهر الى أن التقى به جرجي زيدان وعرض عليه أن يكتب فيها ، فكلفه الرجل تحريرها •

وقد يطفر هنا سؤال : فأين صحيفة « مصر » التي أنشأها أديب اسحاق في ديسمبر سنة ١٨٨١ ؟ لقد كانت معطلة بعد أن أبعد صاحبها الى بيروت عقب الحوادث العربية ، أما صحيفة « الوطن » التي أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة ١٨٧٧ فقد توقفت حينما بعد الاحتلال ، ولم تعد الى الظهور الا في سنة ١٩٠٠ • وظلت القاهرة خالية من الصحافة اليومية منذ أيام الاحتلال الى أن ظهر « المقطم » سنة ١٨٨٩ •

لهذا لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان مصر في ذلك الحين كانت خالية من الصحافة والصحف اليومية • على كل حال ظل جرجي زيدان يشتغل بالتحرير في صحيفة « الزمان » اليومية عاما وبعض عام ، أدرك بعدها أنها صائرة للزوال ، فاستقال منها ، وما كاد يفعل

حتى أقفلتها حكومة الاحتلال ، فحزم صاحبها الأرمني متاعه وسافر الى قبرص حيث أنشأ فيها جريدة أسماها « ديك الشرق » .

هذه محاولة جرجي زيدان الوحيدة للاشتغال بالصحافة اليومية ، ويظهر أنها لم تلائم طبيعته ، ولم توائم مزاجه النفسي والحلقى وطبيعته . وعاد زيدان بعد رحلته الى السودان ، للاشتغال بالصحافة الأدبية ، بعد أن خلا الميدان في مصر من الصحافة اليومية خلوا تاما . فاشتغل بالاشراف على ادارة المقتطف ، ولم يشترك في تحريره الا بنبذة واحدة تقع في نصف صفحة من خاتمة السنة الحادية عشرة . وهذه الحقيقة قد صححها بلباقة وحياء الدكتور يعقوب صروف في معرض تأبينه لصديقه وزميله جرجي زيدان في عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ من المقتطف . ولقد وهم كثيرون (١) من الباحثين فذكروا أن جرجي زيدان شارك في تحرير المقتطف ، وقد تابعوا في وهمهم الأب لويس شيخو اليسوعي الذي ذكر في كتابه « الآداب العربية » أن مجلة المقتطف (انتدبت جرجي زيدان ليكتب فيها ، فنشر عدة مقالات مستحسنة . . .) وممن تابع الأب شيخو في هذا الوهم : الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه « التاريخ والمؤرخون في مصر » ، والدكتور محمد رجب الیومی في مقال له عن جرجي زيدان نشره بالعدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة ،

(١) كنا أول من صحح هذا الوهم حديثا في بحث لنا عن زيدان « تراث الإنسانية » المجلد ٤ عدد ١٠ .

والدكتور محمد يوسف نجم في كتابه « القصة في الأدب العربي الحديث » ، والأستاذ عمر رضا كحالة في « معجم المؤلفين » ، والأستاذ طاهر الطناحي في فصل له عن جرجي زيدان بكتاب « عصاميون عظماء من الشرق والغرب » .

ولم يكمل زيدان في إدارة المقتطف عامين ، فقد التحق به في أواخر سنة ١٨٨٦ ، واستقال منه سنة ١٨٨٨ مؤثرا أن يستقل بالعمل وحده . ولعله في هذه الفترة كان يخطط لإنشاء مجلة أدبية أخرى تؤاخي مجلة المقتطف وتزاملها في ميدان يتسع لمزيد من الجهود . وفي سبتمبر (١) سنة ١٨٩٢ كان القراء في مصر والعالم العربي والعالم الاسلامي يتلقفون أول عدد من مجلة الهلال التي أنشأها جرجي زيدان بعد أربع سنوات من تركه العمل في مجلة المقتطف . وصدر العدد الاول يحمل فاتحة بقلم زيدان يقول فيها :

لا بد للمرء فيما يشرع فيه ، من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يسعى اليها . أما فاتحتنا فحمدا لله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه ، والتوسل اليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب .

وأما خطتنا فالاخلاص في غايتنا ، والصدق في لهجتنا ، والاجتهاد في ايفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة

(١) ذكر الأستاذ أنور الجندي في كتابه « من اعلام الفكر والادب » ان الهلال انشئ سنة ١٨٨٩ ، وهو وهم أو لعله من تحريفات الطبع .

أصحاب الأقلام ، من كتبة هذا العصر ، فى كل صقع ومصر .
أما الغاية التى نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على ما نكتبه ،
ورضاؤهم بما نحتسبه ، واغضاؤهم عما نرتكبه . فإذا أتيح لنا ذلك
كنا قد استوفينا أجورنا ، فتنشط لما هو أقرب الى الواجب علينا .

وقد دعونا مجلتنا « الهلال » لثلاثة أسباب : « أولا » تبركا
بالهلال العثماني الرفيع الشأن ، شعار دولتنا العلية أيدها الله «ثانيا»
إشارة لظهور هذه المجلة مرة فى كل شهر « ثالثا » تفاؤلا بنموها
على الزمن ، حتى تتدرج فى مدارج الكمال ، فإذا لاقت قبولا
واقبالا ، أصبحت بدرا كاملا باذن الله .

هذا واثنا نرجو أن تصادف خدمتنا هذه استحسانا ، وحسن
قبول لدى حضرات القراء الكرام . ونعدهم ببذل الجهد فى اخلاص
الخدمة ، قياما بموجبات مصلحتنا ، وابتغاء لمرضايتهم . والله المستول
أن يلهمنا منهجا قويا ، ومسلكا مفيدا .

ووجد جرجى زيدان فى « الهلال » تحقيق حلمه الذى كان
يحلم به ، فعكف على تحريرها بنشاط لفت اليه أنظار الكثيرين ،
حتى ليقول المستشرق الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى فى صدد
ذلك : (وقد ارتبطت حياته ارتباطا وثيقا بهذه المجلة منذ ذاك الى
حين وفاته المبكرة ، وكان زيدان جم النشاط عارمه) .

ووجد الناس فى الشرق مجلة أدبية علمية خفيفة الظل بجانب

مجلة « المقتطف » التي كانت تمتاز موضوعاتها بالدسامة والعلوم الطبيعية والفلك والتاريخ الطبيعي ، فتهاقوا عليها ، واشتركوا فيها ، وغمروها بالأسئلة التي كان يجيب عنها زيدان ، كما كان يجيب الدكتور صروف عن أسئلة القراء في المقتطف .

ولم ينحصر ميدان انتشار الهلال في العالم العربي وحده ، ولكنه تخطاه الى البلاد التي يقيم فيها قراء من العرب أو يعرفون العربية . وما كادت تبلغ خمس سنوات من عمرها حتى لاحظ الياس زخورة ، صاحب « مرآة العصر » ، سعة انتشارها فكتب يصف شهرتها وسعة انتشارها بما لم يسبق له مثيل في العالم العربي (فقراؤها يعدون بعشرات الآلاف ، وهم منتشرون في أقصى العالم حتى الصين والهند وأستراليا وأمريكا وزيلاندا وزنجبار وجزائر المحيط ، فضلا عن سعة انتشارها في مصر وسوريا وأوربا وغيرها) .

ولو ألقيت نظرة على الغلاف الداخلي لعدد من أعداد الهلال في ذلك الزمان لرأيت يزدحم بعناوين وكلاء المجلة في الولايات المتحدة ، وكندا ، والمكسيك ، وكوبا ، وسلفادور ، وهندوراس ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وشيلي ، والبصرة ، وبغداد ، وكربلاء ، وجاوة ، وجزائر الهند الشرقية ، وبيروت ، ودمشق ، وحلب ، وطرابلس .

وبات هذا الانتشار الواسع لمجلة الهلال حدثا يلفت الانتظار في الشرق العربي تنبه له الشرقيون والغربيون على السواء ، فترى

المستشرق كراتشكوفسكى فى المقال القيم الذى كتبه عن جرجى زيدان فى دائرة المعارف الاسلاميه يؤكد هذه الحقيقة بقوله :
(وأصبح الهلال أوسع المجلات العربية انتشاراً) •

وكثير من الكتب التى ألفها جرجى زيدان كان ينشر فى الهلال على هيئة فصول متفرقة • فكتابه « تاريخ ادب اللغة العربية » نشر منه فصولاً صدر أولها سنة ١٨٩٤ فى عدد الهلال التاسع من السنة الثانية ، وصدر آخرها فى أواخر السنة الثالثة ، وانتهى بالفصول المنشورة الى عصور الانحطاط فى الأدب العربى ، ثم اتجه الى أن يجعل منه كتاباً قائماً ، فظل يجمع ويقرأ ويحقق ويحلل ، ولم تقع له شاردة الا قيدها ، ولا ملاحظة الا حفظها وتدبرها حتى ظهر الكتاب كاملاً فى سنة ١٩١١ ، أى بعد بضع عشرة سنة من تاريخ نشر أول الفصول على هيئة مقالات فى « الهلال » •

وكتابه « تراجم مشاهير الشرق » نشر كثير من تراجمه فى أعداد مجلة الهلال منذ السنوات الأولى لصدورها ، ثم رأى أن يجمعها فى كتاب قائم بذاته بعد أن كثر طلب القراء لمثل هذا النوع من الكتب ، فاستجاب لرغبتهم وأصدر الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٠٢ لا سنة ١٩٠٧ كما ذكر خطأ فى كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ليوسف أسعد داغر •

وكتابه « تاريخ التمدن الإسلامى » صدر منه فصول فى مجلة الهلال على هيئة حلقات ، ظهر منها بضع عشرة حلقة كان القراء

يَتَقَبَّلُونَهَا بِقَبُولِ حَسَنِ ، فَرَأَى أَنْ يَجْعَلَ تَمَمَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ مِنْ
مَجَلَّةِ الْهَلَالِ - أَيْ سَنَةِ ١٩٠٢ - كِتَابًا كَامِلًا مُسْتَقِلًا فِي هَذَا
الْمَوْضُوعِ • وَبِهَذَا ظَهَرَتِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى مِنْ « تَارِيخِ التَّمَدُّنِ
الْإِسْلَامِيِّ » ، سَنَةِ ١٩٠٢ لَا سَنَةِ ١٩١٠ كَمَا ذَكَرَ الدُّكْتُورُ حُسَيْنُ
مُؤَنِّسٍ فِي تَقْدِيمِهِ لِلْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْأَخِيرَةِ الَّتِي صَدَرَتْ سَنَةِ ١٩٥٨ •
وَهَكَذَا تَرَى أَنَّ أَغْلَبَ مُؤَلَّفَاتِ جَرَجِيِّ زَيْدَانَ كَانَتْ فِي الْأَصْلِ
فُصُولًا وَمَقَالَاتٍ نَشَرَتْ فِي مَجَلَّةِ الْهَلَالِ ، ثُمَّ طُبِعَتْ فِي كُتُبٍ مُسْتَقِلَةٍ
بَعْدَ ذَلِكَ •

وَاصْدَارَ كِتَابٍ بَدَلًا مِنْ عِدَدٍ أَوْ عِدَدَيْنِ مِنْ مَجَلَّةِ « الْهَلَالِ » ،
هِيَ خُطَّةٌ جَرَتْ عَلَيْهَا أَيْضًا مَجَلَّةُ « الْمَقْتَطَفِ » ، فِيمَا كَانَتْ تُنْشَرُهُ مِنْ
كُتُبٍ تَعْدُهَا لَوَاحِقُ لِلْمَقْتَطَفِ • عَلَى أَنَّ الْهَلَالِ بَعْدَ ذَلِكَ جَرَتْ عَلَى
اصْدَارِ أَعْدَادٍ خَاصَّةٍ أَوْ مُمْتَازَةٍ مِنَ الْمَجَلَّةِ تَعَالَجُ مَوْضُوعًا وَاحِدًا مَعِينًا
فَكَأَنَّهَا فِي الْحَقِّ كِتَابٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ • فَمِنْذَ سَنَةِ ١٩٣٢ حَتَّى سَنَةِ ١٩٤٨
أُصْدِرَتْ بَضْعَةُ عَشْرِ جُزْءٍ مِنَ الْأَعْدَادِ الْخَاصَّةِ تَتَاوَلَتْ مَوْضُوعَاتٍ
مُسْتَقِلَةٍ ، كَالْأَعْدَادِ عَنْ الْفَارُوقِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَأَبِي الطَّيِّبِ
الْمُتَنَبِّئِيِّ ، وَأَبِي نَوَاسٍ ، وَأَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ ، وَالْمَرْأَةِ وَالْحُبِّ ،
وَالْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ • وَأَخِيرًا صَدَرَ لَهَا عِدْدَانِ خَاصَّانِ أَحَدُهُمَا عَنْ
عَبَّاسِ مُحَمَّدٍ الْعَقَادِ فِي آبْرِيلِ سَنَةِ ١٩٦٧ ، وَالثَّانِي عَنْ الشَّاعِرِ
أَحْمَدَ شَوْقِي فِي نَوْفَمْبَرِ سَنَةِ ١٩٦٨ •

والحق أن مجلة « الهلال » عاصرت التطور الحديث في العالم العربي ، وسأيرته وأسهمت بنصيبها فيه منذ انشائها سنة ١٨٩٢ حتى اليوم . ولا شك أن آراء علمائنا ومفكرينا وأدبائنا في « الهلال » تعطي فكرة واضحة عن الدور الذي قامت به هذه المجلة لتطور الفكر العربي . فهذا أحمد زكي « باشا » يقول فيه : (هلال السماء يتنقل من نقص الى زيادة ، ومن زيادة الى نقص وأما هلال زيدان فدائما في ازدياد) . وهذا أمين سامي « باشا » يقول : (من ذا الذي لا يعترف بفضل الجهود التي يبذلها القائمون بأمر مجلة الهلال الممتازة بمباحثها العلمية العالية والأدبية الراقية التي هي خير ما يقتدى به) . وهذا الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول : (كان الهلال مجلة الشيوخ . فصار مجلة الشيوخ والشبان) ، وهذا عباس محمود العقاد يقول : (الهلال يسر المعارف ولا يتذللها) ، وهذا ابراهيم المازني يقول (الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح في الحياة) ، وهذه الأدبية الآتية مي زيادة تقول : (الهلال صورة واضحة للتطور الحديث) ، وهذا محمد فريد وجدي يقول : (مجلة الهلال من أجمع المجلات لثمرات العقول الناضجة ، فهي من أنفع العوامل لامداد النهضة الفكرية الراهنة بما تحتاج اليه) ولن تتم هذه الشهادات الصادقة بغير شهادة الدكتور طه حسين الذي قال : (كانت الهلال مثال الجد في العمل ، والاخلاص للعلم ، ثم أصبحت - الى ذلك - مثال الفطنة لأذواق القراء ، والنشاط

لارضائهم • وهى على كل حال أخف المجلات العربية ظلاً • (•)
الحق أن جرجى زيدان عرف منذ اللحظة الأولى لانشائه
مجلة الهلال كيف يجعلها محبوبة لدى الناس جذابة لديهم ،
فخفف من جفاف المادة العلمية الدسمة الثقيلة على معدات القراء
بما أضفى عليها من خفة الظل التى أشرنا إليها قبلاً ، والتى سجلناها
للدكتور طه حسين فى ختام هذه الشهادات •

التثقيف الذاتى والتعويل على المصادر

ان مدرسة المعلم الياس شفيق ، ومدرسة الشوام ، ومدرسة المعلم ظاهر خير الله بيروت لم تعط الصبى والغلام جرجى زيدان شيئا أكثر من « فك الخط » ، والقراءة ، والحساب ، وشيء من النحو والصرف ، ومبادئ اللغة الفرنسية . أما مدرسة المعلم مسعود الطويل المسائية فقد أعطت زيدان شيئا لا بأس به من اللغة الانجليزية . وقد تكون السنة الدراسية التى قضاها فى المدرسة الكلية الأمريكية بيروت فتحت أمامه أبواب تعلم الطبيعات والحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء ، والمواد الطبية والأقرباذين ، وهى المواد التى أدى فيها امتحانا لنيل شهادة الصيدلة .

ومن هنا كان زيدان لم يتعلم تعليما منتظما فى المدارس النظامية ، وقد عاكسته الأقدار فلم تهيب له من ذلك التعليم ما كان

يصبو اليه • وحتى على فرض أنه استوفى حقه من التعليم الدراسي المنظم ، فهل كانت المدارس يوما ضمانا للنجاح في الحياة ، أو كانت الشهادة يوما صكا على الأيام بالانجازات العظيمة للمرء في حياته ؟

لقد تعلم زيدان في مدرسة الحياة على نفسه ، فكان هو في نفسه طالبا ومعلما • وقد أدرك بفطرته العارفة أن المطالعة والقراءة هما سبيل من لم تمكنه الحياة من الدروس النظامية في المدارس • فكان أول كتاب قرأه بالانجليزية هو « رحلة كوك في المحيط » ، وكان أول كتاب قرأه في العربية بعد ذلك هو كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجي ، وهو الكتاب الذي وصل به اليازجي سلسلة كتب المقامات في الأدب العربي حتى عصرنا الحاضر • وقد استكثر والده عليه أن يشتري هذا الكتاب ببضعة قروش لا تتجاوز تسعا ، وعد ذلك منه سرفا وسفها ••• وعلى قدر ما اعتم والد زيدان لسفه ابنه في شراء كتاب أو ورق بدراهم معدودة ، فرح أمين فياض - صديق الأسرة - بهذا الاتجاه من الولد المحب للقراءة وخاطب والده قائلا : اشكر الله يا أبا جرجي أن ابنك ينفق الدراهم في شراء الكتب ، وليس في السكر ونحوه • انها نعمة يجب أن تشكر الله عليها ؟ ويقرر لنا جرجي زيدان في مذكراته الصريحة الطريفة أن ولوعه بالمعرفة والعلم قد دفعه الى مطالعة كتب الطبيعة والجغرافيا ، واستطاع أن يحصل على بعض المؤلفات في هذين الموضوعين من العملاء المترددين على مطعم أبيه • ولقد بهزه

أن يعرف من عجائب الكون عن طريق القراءة حركة دوران الأرض ، والخسوف والكسوف ، والزلازل والبراكين ، وتكون السحاب ونزول المطر • ولقد استهوته مقالة في إحدى المجلات العربية - ولعلها المقتطف - عن ظاهرتي الكسوف والخسوف فزادت تلهفه على قراءة كتب الجغرافية الطبيعية •

ويفسر لنا الدكتور حسين مؤنس سر تعلق زيدان بالموضوعات التاريخية ، فقد كانت كتب التاريخ أحسن ما تخرجه المطابع في ذلك العهد ، وكان الرجل شديد النهم إلى القراءة والاطلاع ، فنهل من هذه المناهل ، وروى عن سعة ، وسار في ركب المؤرخين ، فلم يلبث أن فازقه تهييه ، وأصبح بفضل دأبه على العمل ، وضربة على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخي العرب على أيامه (١) •

على أننا لا ننكر عاملاً آخر ساعد على سعة اطلاع جرجي زيدان وامتداد آفاق مطالعته وقراءاته • فقد كان يجيد العربية وينفذ إلى أعماقها ، ويقرأ النصوص القديمة - على وعورتها - بطلاقة وفهم عميق ، وكان يعرف الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية معرفة تامة ، وكانت معرفته بالإيطالية والأسبانية تمكنه من فهم ما يقرؤه فيهما ، بالإضافة إلى إتقانه العبرية والسريانية من اللغات السامية • وقد أتاحت له هذه الألسن المتعددة أن يقرأ في إنتاجها الفكري ، وأن تبسط مطالعته إلى آفاقها •

(١) من تقديم كتاب « تاريخ التمدن الإسلامي » في طبعته الأخيرة ص ٨

ان زيدان نموذج جيد في تاريخ الأدب العربي للذين تقفوا
أنفسهم بأنفسهم ، وقد كان فيه طبيعة لالتقاط المعرفة وكسبها من
أى مصدر مقروء سواء أكان مجلة أم كتابا ، وقد أفاده طول تقليد
كتب الأوائل بين يديه علما بالمصادر ومطابق البحث ومواطن الافادة
بالمعرفة . وهو في هذا يذكرنا في القدماء بياقوت الرومي صاحب
معجم الأدباء ، ومعجم البلدان ، وهما من أضخم مراجعنا العربية
في التراجم والبلديات . فقد كان أسيرا من أسرى الروم ، لم
يدخل مدرسة ، ولا قرأ على شيخ من الشيوخ ، ولكنه تعلم اللغة
والنحو على كبر في السن ، ثم اشتغل بنسخ الكتب لمن يطلبون
نسخها ، فأفاده ذلك وعاد عليه بثروة ضخمة من المعرفة . ومن هنا
كان تثقيف زيدان لنفسه بنفسه ظاهرة تلفت النظر عند الباحثين
والدارسين . ويسرنا أن صاحب « من أعلام الفكر والأدب » قد
تنبه لهذه الظاهرة ، مع ظاهرة الهجرة الى مصر التي منحتة معنى
القوة والثقة بالنفس (١) .

ولقد أنس زيدان بالكتب فجعلها دعامة في مصادره لكتبه
التي ألفها . وهو دائما يسجل أسماء مصادره ومراجعته وخاصة في
مقدمات تأليفه ، وأحيانا يذكر المصادر في هوامش الكتاب مشيرا
الى أجزائها وأرقام صفحاتها ، وأحيانا يذكر المراجع - وقد يسميها
أحيانا المآخذ - في آخر باب من أبواب الكتاب ، كما فعل في مصادر

(١) من أعلام الفكر والأدب ص ٨٥ .

الشعر الجاهلي ، فقد ذكرها في نهاية باب العصر الجاهلي ، وذكر منها واحدا وثلاثين مرجعا عربيا مع ذكر سنوات الطبع وأمكنة طبعها . ثم أعقب ذلك بذكر بضعة من المراجع الأوربية لموير ، وسلان ، وليال وغيرهم ، وختم المراجع للشعر الجاهلي بذكر كتاب في شرح المعلقات بالعربية ، والفارسية ، والهندية ، اسمه « رياض الفيض » ، طبع في لاهور بالهند سنة ١٢٩٩ هـ .

ومن المؤلفين المعاصرين من يتكثرون بذكر المراجع والمصادر حبا في التفاخر والتباهي ، وقد يكونون لم يطلعوا على كثير مما ذكروه من مراجعهم ، فهم ينقلون مراجع غيرهم ويضعونها في كتبهم ، وكثيرا ما تكشف قراءاتنا الفاحصة عن هذا التفاخر والتكثُر الرخيص . ولكن زيدان كان أجل قدرا ، وأصدق حالا من أن يدون في مؤلفاته مرجعا لم يقرأه ويرجع اليه ويفد منه . ولقد كثرت مراجعه كثرة تلفت النظر . ويعترف هو في مقدمة كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » أنه قد زاد عدد ما طالعه من الكتب العربية والأجنبية لهذا المؤلف على مائتي مجلد (١) ، ونحن لا نشك لحظة في هذا العدد الذي يقدمه ، فنحن ندرى ما يحتاج اليه البحث في هذه الموضوعات من قراءات واسعة .

وتختلف مصادر زيدان ومراجعته بين عامة وخاصة ، وبين عربية وأجنبية . والمصادر العامة كان يفيد منها جرجي زيدان في

(١) تاريخ التمدن الاسلامي - ص ١٤ - الطبعة الأخيرة .

جمع جزئيات المسائل وفروعها ، وخاصة ما يتصل بالحضارة
الاسلامية ، والمراجع الخاصة هي التي تنحصر في موضوع معين
كمراجعته للشعر الجاهلي وشعراء الجاهلية التي سبق الحديث عنها .

وحين يلجأ زيدان الى ذكر مصادره ومراجعته فله في ذلك
طريقتان : الأولى أن يأتي بها في تقديمه للكتاب ، ويذكرها أو
يذكر بعضها على سبيل المثال متالية حسب موضوعاتها ، كما في
مقدمته لتاريخ ائمة الاسلام ، فيقول : (ومن أمثلة ما قرأناه من
كتب التاريخ والفتوح والتقاويم كذا وكذا ، ومن كتب الأدب كذا
وكذا ، ومن كتب التفسير والحديث والفقه كذا وكذا ، ومن كتب
السياسة والادارة كذا وكذا) . وهكذا يذكر الكتب وفق
موضوعاتها متعاقبة بلا ترتيب لها وفق حروف الهجاء ، فالكتاب
المبدؤ بحرف الميم يأتي قبل الكتاب المبدؤ بالهمزة . والطريقة
الثانية أن يدون أسماء الكتب في جدول أو ثبت مرقمة ، مع ذكر
تاريخ الطبع ومكانه . على أنه - بالاضافة الى الطريقتين السابقتين
- قد يذكر المراجع في هوامش الكتاب كما أسلفنا .

ولكن هناك فوق ما تقدم طريقة فريدة لزيدان في مصادره
عن الأعلام ، والشعراء ، والخطباء ، والفقهاء ، والمفسرين ،
والمحدثين ، والمؤلفين واللغويين ، ورجال الأدب والفكر ، الذين
يزدحم بهم كتابه الضخم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فهو في
نهاية الترجمة أو التعريف بكل شخصية يذكر مصادر ترجمتها .

ففى نهاية ترجمته للشاعر مسلم بن الوليد - مثلاً - يقول : (وتجد أخباره فى الشعر والشعراء ٥٢٨ ، وفى الأغاني ٩ ج ١٣ ، والعقد الفريد ١٤٢ هـ ج ١ ، وفى طبعة انديوان المذكورة) • ولما كانت هذه المصادر والمآخذ قد فات زيدان بعضها ، أو ظهر بعد عصر زيدان مصادر ودراسات جديدة بعد أن انتقل الرجل الى رحمة الله ، فإن استكمال هذه المصادر - بما ظهر من مخطوطات نشرت ، أو دراسات استجدت ، أو نقص استكمل - قد بات ضروريا للطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، وهو عمل قد قام به الدكتور شوقي ضيف على وجه محمود ومشكور ، على حين أن الدكتور أنطون كرم يرى أن شوقي ضيف لم يضيف كبير شيء الى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية (١) • وهو حكم نرى فيه كثيرا من الجور •

ولم يقف زيدان الافادة من مصادره للبحث على المصادر القديمة وحدها ، ولكنه كان يتابع المكتبة العربية والكتب المطبوعة حتى أيامه • ففى ترجمته للشاعر الجاهلى : المتلمس ، يضيف الى المصادر القديمة مصدرا معاصرا له وهو كتاب « شعراء النصرانية » للأب لويس شيخو اليسوعى المتوفى سنة ١٩٢٧ •

ولم يتأثر جرجى زيدان فى تسجيله لمصادر دراسته بما كان بينه وبين بعض حساده من خصومات ؛ لأنه يضع العلم والحق فوق

(١) الادب العربى فى آثار الدارسين ص ١٢٦ •

كل اعتبار • فلا نراه يفضّل مثلاً على الأب لويس شيخو ويسقطه من ذكره وذكر كتبه بين مصادره لأن الرجل تهاجم عليه في نقده ، ولكنه ينسى إساءات المسيئين ، وإن كنا لم ننسها نحن ولم ننسها تاريخ النقد حين كتب الأب شيخو عن كتابي زيدان : « علم الفراسة الحديث » و « تاريخ الماسونية العام » يقول : (•• وأقبح منه تاريخ الماسونية العام الذي ذهب فيه زيدان مذاهب صيانية خرافية (١)) ••

(١) الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين - ص ٧١ •

كتب زيدان بين النقد والرواج

لقد تعرضت كتب جرجى زيدان لحمالات من النقد لم تشهد لها ضرباً فيما صدر من كتب لمؤلفين في أخريات القرن الماضي والربع الأول من القرن العشرين . وقد أحس الرجل نفسه كثرة استهدافه واستهداف كتبه للنقد ، فكتب في مقدمة الجزء الثالث من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول : (لا نظن كاتباً من كتاب العصر لاقى ما قناه من الانتقاد في أثناء اشتغالنا بهذه الصناعة منذ بضع وعشرين سنة) . وكان في أول الأمر يعنى بالانتقادات ويرد عليها ويبين موضع التحامل فيها ، كما فعل في رده على كتاب « نبش الهذيان من تاريخ جرجى زيدان » لأمين بن حسن المدني ، وكما رد في « المؤيد » على انتقاد الجزء الأول من تاريخ التمدن الاسلامي . ومضى زيدان في تأليفه ولم يبال بالناقدين بعد ذلك ، ولم يكلف

نفسه عناء الرد عليهم ، بل جعل المثابرة على العمل في خدمة تاريخ الاسلام والأدب هي جوابه على الانتقادات •

وكان زيدان - شأن العالم الحقيقي - يرى أن انتقاد الكتب أكثر من تقريرها فائدة ونفعا • وأن الانتقاد لا يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها (١) • وكثيرا ما نراه يشيد بفضل ناقديه عليه وجميلهم اليه ، كموقفه من نقد الأب لويس شيخو اليسوعي لتاريخ آداب اللغة العربية الذي نشره في مجلته « المشرق » في الجزء الثامن من السنة الرابعة عشرة ، فقد وصف نقد الأب شيخو بأنه (نم عن أدبه وفضله ، ودل على تمكنه من الموضوع) • وكثيرا ما كان يرجو ممن يقع في أحد كتبه على خطأ أن ينهيه اليه ليستدركه في الأجزاء التالية ، فإن العصمة لله وحده (٢) • ويدلنا هذا على جانب من جوانب الخلق الكريم عند زيدان ، فطالبنا ألج على قرائه الكثيرين أن ينهوه الى أخطائه ، ليستوجبوا بذلك شكره وثناؤه (لأنني أستحي من الحق إذا عرفته أن لا أرجع اليه) (٣) • وكان زيدان حين يرى النقد سليما ويصح عنده فإنه يأخذ به ، ويغير ويصحح في الكتاب في الطبعة الجديدة ، أو يشير الى التصحيح فيما يلي من أجزاء الكتاب • وأما ما لا يصح عنده من النقد فإنه يغفله ولا يشير اليه (٤) •

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ج ٢ ص ٤ •

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٨ •

(٣) تاريخ مصر الحديث ص ٧ •

(٤) تاريخ التمدن الاسلامي • ج ١ ص ١٧ •

وما اتسع صدر كاتب عندنا فيما نعلم كما اتسع صدر جرجي زيدان ، وكان الحاحه الدائم على قرائه بأن يعيشوا اليه بملاحظاتهم واستدراكاتهم هو الدليل على ثقته بنفسه من ناحية ، وثقته بالقراء من ناحية أخرى . فهو لا يعد نفسه الحكم الفيصل في الموضوع الذي يعالجه ، ولكنه يعد القارئ شريكه ، وطرفا آخر في القضية . وكثيرا ما يحس بفطرة العالم أن شيئا أو أشياء قد تكون فاتته في الكتاب فيتمنى على القارئ لو بعث اليه بما يوفى الموضوع ، ويسد النقص . فانه حين فرغ من تأليف « تراجم مشاهير الشرق » ، أحس أن هناك تراجم قد تكون فاتته لقله المآخذ المؤدية الى ذلك ، لقرب عهدنا من الحضارة الجديدة (فلا يخلو أن يكون قد فاتنا ذكر بعض المشاهير من رجالنا ، فنرجو من أهل الاطلاع أن ينبهونا الى ذلك ، ويعثوا الينا بما يعلمونه من تراجم أولئك الرجال ، لندرجها في ملحق نجعله جزءا ثالثا لهذا الكتاب ان شاء الله) (١) .

وكان جرجي زيدان يجمع هذه الانتقادات والملاحظات التي تنشر في المجلات والصحف ، أو تطبع في كتب على حدة ، أو ترسل اليه على هيئة رسائل خاصة ، ويعيها وعي العالم الدقيق ، فإذا ما استقر عنده صحتها وسلامة وجهة النظر فيها نشرها في آخر أجزاء الكتاب ان كان ذا أجزاء ، أو في الطبعة الجديدة منه . وقد

(١) من مقدمة جرجي زيدان للطبعة الاولى من (تراجم مشاهير الشرق)

نشر في ذيل الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » كثيرا من الاستدراكات والاصلاحات على ضوء الانتقادات التي نشرت حول الأجزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب . وسجل في المستدرک أسماء طائفة من أصحاب تلك الانتقادات ، وهم الأب لويس شيخو في مجلة المشرق ، والأب أنستاس ماري الكرملی في مجلة لغة العرب ، والشيخ أحمد الأسكندري في مجلة المنار ، وآل كاشف الغطاء في مجلة العرفان ، وعيسى اسكندر المعلوف في الآثار ، وأحمد تيمور في رسائله الخاصة ، والمستشرق جولدسيهر ، والأستاذ عبد الفتاح عبادة ، ورضاء الدين بن فخر الدين في روسيا في كتبهم وخطاباتهم الى زيدان .

وحين أصدر زيدان الجزء الثاني من « تاريخ آداب اللغة العربية » لم يشأ أن يسكت على مسألة الناقدین للجزء الأول منه ، فبعد أن شكر المقرضين بدأ يبين اهتمام المنتقدين بانتقاد الكتاب (بلهجة تتفاوت شدة وأسلوبا بتفاوت فهمهم من المراد بالانتقاد وشروطه) ، كما بين بعد ذلك حرج مركز الكاتب الشرقي بين قرائه (فليس في الدنيا جمهور استحکم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطنًا ومشربا ومذهبا وتربية ، فلا يتأتى لكاتب ارضاؤهم جميعا ولو أوتى علم الأولين والآخرين) . ورد على من يقول في نقده انه قلل من الأمثلة والنماذج الشعرية والتثرية ، بأن ذلك كان عن قصد وارادة،

فلو أكثر من الأمثلة لخرج عن الغرض المقصود من الكتاب ، وأحال من يطلب اكنار النماذج على المراجع القديمة الأصلية ذاتها ، أو على كتب في الأدب العربي معاصرة له ، منها كتاب محمد عاطف بك وزميليته ، وكتاب الشيخ محمد حسن نائل المرصفي •

وحين أصدر ثالث أجزاء الكتاب كتب مقدمة غير قصيرة في النقد والناقدين ، ورد على الأب شيخو ، وأحمد عارف الزين ، والأب الكرمل ، والشيخ أحمد الأسكندري • وقد أطلال في رده على الأسكندري ، ويظهر أنه كان شديد التأثر من لهجته في الانتقاد ، فقد لاحظ على شيخنا أحمد الأسكندري أن لهجته في النقد هي لهجة أستاذ يلقي درسا على تلميذه ، وتمنى عليه لو اختار في الانتقاد لهجة أخرى وخاصة أنه عانى التأليف في موضوع الأدب العربي بكتابه « الوسيط » •

وقد تعزى زيدان فيما وجه إليه من انتقادات لكتبه بما لاحظته وقرره من أن المرء لا يكاد يجد كتابا واحدا لم يتناوله الأدباء بالنقد • فكتاب « العين » للخليل ، و « الكتاب » في النحو لسيبويه ، وشعر المتنبي ، وأبى تمام وغيرهما لم تسلم من ناقد أو عائب • بل لم يسلم من النقد العنيف والتقريع واحد من كبار اللغويين والمؤرخين من أمثال ابن الأثير ، وابن خلكان ، والفيروزآبادي ، وابن خلدون ، والمقرئ وغيرهم •

وكانت الانتقادات الموجهة الى زيدان وكتبه - وخاصة في الآداب العربية ، والتمدن الاسلامي - تختلف شدة وضعفا ، ولينها وعنفها ، وبراعة وغرضا . ويشير أحمد أمين الى اختلاف نقاد جرجي زيدان بقوله : (. وكان نقاده مختلفي الأصناف ، فمنهم هادي رزين في نقده ، كنقد المرحوم رفيق بك العظم ، والأب لويس شيخو ، ونقد لاذع شديد كنقد المرحوم الشيخ أحمد الأسكندري في مجلة المنار ، ونقد نزيه ونقد غير نزيه) وهذا الكلام يحتاج الى تبين أكثر ، والى تكميل بما يوفى الكلام في مسألة انتقادات كتب زيدان . فان بعض النقود كانت موضوعية كانت انتقادات الشيخ الأسكندري ، والأب الكرمل ، والدكتور يعقوب صروف الذي كان ينقده في « المقتطف » نقدا هادئا لبقا ، ليس فيه كلمة جارحة . وبعض النقود كان فيه موضوعية ، ولكنه يخرج عن إطار الهدوء الى إطار الاثارة والانتهاكات المجسمة كالاتهامات بسوء النية في اظهار مثالب العرب ، والانتهاك باعتماد زيدان على روايات وأخبار ثبت كذبها ، والانتهاك بخديعة زيدان لقرائه بمدح الاسلام وكونه أقرب لحرية الفكر ثم الدس عليه بعد ذلك بابرار آراء أهل الفرق الضالة والمذاهب المعروفة بالالحاد والزندقة ونسبتها الى الاسلام ، وهذه الانتهاكات هي مما جرى به قلم الشيخ شبلي النعماني الهندي ، وأسس عليها بالطبع اتهام جرجي زيدان بالشعبوية .

وعلى الرغم من شهادة زيدان نفسه لانتقادات الأب لويس

شيخو بأنه' كانت تتم عن أدب وفضل وانصاف في الحكم وتمكن في الموضوع ، فان قلم هذا الأب كان ينزلق أحيانا الى عبارات وألفاظ لا تليق برجل دين ، كألفاظ الأوهام ، والخياليات ، والقبح ، والصيانيه ، والخرافية وما اليها • وهي ألفاظ سجلها الأب لويس في كتابه عن (الآداب العربية) • أما انتقادات الشيخ ابراهيم اليازجي وخاصة لأسلوب زيدان وألفاظه غير الفصاح ، فقد كانت - على أدبها وهدوئها - نموذجاً لتشدد اليازجي في نقد اللغة الدائرة يومئذ ، والتي أسماها « لغة الجرائد » ، كما كانت - كما يقول كراتشكوفسكى - انتقادات من يتصيد الأخطاء (١) •

ومن أشد الانتقادات التي وجهت الى كتب زيدان تلك التي وجهها اليه الشيخ أمين بن حسن المدني في كتابه « نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان » ، وقد رد عليه زيدان بكتاب عنوانه « رد رنان » ، على نبش الهذيان ، صدر عن مطبعة التآليف سنة ١٨٩١ • ولم يتح لنا الاطلاع على نقد الشيخ أمين المدني هذا ولا كتابه ، ولكن كراتشكوفسكى يذكر لنا أن هذا النقد كان نافها في معظمه •

على أن هناك ناقداً لزيدان كان من السابقين الى نقد كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » نقداً موضوعياً نزيهاً هو الدكتور محمد

(١) دائرة المعارف الإسلامية « مادة زيدان ص ٨ •

حسين هيكل « باشا » ، وكان زيدان قد أهدى إليه نسخة من كتابه، على غير سابقة معرفة بينهما كما يقول هيكل ، فأكبر الرجل هذه اللقطة وتفرغ لقراءة الكتاب بامعان ، وخرج من القراءة بنقد نزيه مؤدب نشره في « الجريدة » سنة ١٩١٢ •

وقد سبق أن أشرنا هنا الى نقد الدكتور يعقوب صروف واتسامه بالأدب والهدوء واللباقة وعدم التجريح • ونجد هنا المجال مواتيا للاستشهاد ، ففي عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ دخل صروف ميدان النقد لتاريخ آداب اللغة العربية بكلمة وجيزة ذات دلالة يقول فيها : (ولا شبهة في أن كثيرا من منقولاته وأحكامه يفتقر الى التحقيق والتحصيص ، ولكن ذلك يكون بعد الجمع والتبويب) • وقد ترفق صروف بهذه العبارة الناعمة بصديقه زيدان في خلال معركة عنيفة سلت فيها السيوف عليه من كل جانب •••

ولا تزال معركة النقد لكتب زيدان قائمة لم يفصل الموت فيها • وستظل المعركة قائمة ما دام الكتاب يبقى حيا بعد صاحبه • ومن أحدث الانتقادات الموضوعية لكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ما كتبه الدكتور أنطون كرم في الفصل الخاص بالشعر العباسي حتى آخر عصر المتنبى من كتاب « الأدب العربي في آثار الدارسين » ، فمع تقدير الناقد للظروف والزمان الذي ألف فيه كتاب زيدان فإنه يرى أن به آفتين كبيرتين : الأولى ترجع الى « ذهنية » المؤرخ لدى زيدان فقد غلبت على ذهنية الدارس الناقد،

فطغى التاريخ على الأدب ، والثانية مردها الى أن التمهيد العام الذى وضعه زيدان ص ١١ - ٤٢ لا يرتبط بالشعر الا من بعيد ، وأن المقدمات الخاصة التى جعلها لكل مائة من المئات العباسية الثلاث قد لا تخلو من الخطأ ، لفرط ما فيها من التعميم ، أو قد يتخذ فيها الدليل والدليلين فيسوقهما قاعدة (١) مطلقة .

وعلى الرغم مما وجه الى كتب زيدان من انتقادات كثيرة فى معركة طويلة موصولة ، فانها كانت تروج رواجاً عظيماً عند القراء ، وطبعت مرارا ، وترجمت الى لغات كثيرة أوربية وشرقية . ويعترف هو نفسه بهذا الرواج والتقدير والقبول ، ويقول : (ولا نقول ذلك للتفاخر فانا من أبعد الناس عن التنويه بأعمالنا ، وانما نقوله - رغم ارادتنا - تقريراً للحقيقة) (٢) .

وقد حظيت روايات زيدان التاريخية برواج آخر عظيم لم تصادفه مؤلفات فى عصره ولا فى الجيل الذى بعده . ويشير صاحب « مرآة العصر » الى هذا الرواج الذى لم يسبق له مثيل فى اللغة العربية (٣) . ولا نعيد هنا مسألة ترجمة مؤلفات زيدان الى غير العربية ، ولكننا نؤكد أن بعضها ترجم حتى الى الروسية والبرتغالية والألمانية ، وأن معظمها ترجم الى لغات شرقية منها لغة « التاميل »

(١) الادب العربى فى آثار الدارسين - ص ١٢٦ .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ ص ٦ .

(٣) مرآة العصر - ص ٤٦٤ .

في شتافورة • والأذربيجانية ، والهندستانية ، والفارسية • وليس هناك غراية في أن ترجم كتب زيدان الى اللغات الأوربية التي اعتمد هو عليها في تأليفه ، فانه قد أفاد من المصادر العربية التي بين يديه فائدة عظيمة ، وجمع منها مادة وتفصيلات خضارية - وخاصة في تاريخ التمدن الاسلامي - الى حد أن الدارس الأوربي كثيرا ما يجهل في هذا الكتاب بالذات تفصيلات لا يجدها في مكان آخر (١) •

وليس معنى هذا أن كتب زيدان كلها كان حظها الزواج المطلق ، فان بعضا منها لم يلاق النجاح مثل تاريخ الماسونية ، والتاريخ العام ، وتاريخ انكلترا ، وجغرافية مصر •

وما رأينا منقودا انتفع بنقد ناقدية مثل جرجي زيدان • لقد كان يرحب بالنقد ، ويطلبه من القراء ، ويعمل به - أو بما يصح عنده منه - في الطبقات التالية لمؤلفاته ، حتى يجيء انتاجه أوفر مادة ، وأبعد من المآخذ ، وأقرب الى الكمال •••

والحق أن كتب زيدان قد راجت ونجحت وأقبل الناس عليها بما فيها هي نفسها من صحة وصلاحية ومسوغات للرواج ، لا بالعوامل الأخرى التي قد تؤثر بعض الثمرات العاجلة ولكنها لا تبقى على المدى الطويل ، كغنى المؤلف أو مركزه الاجتماعي أو نفوذه في الدولة ، أو تنظيم الدعاية له وحشد المهللين حوله • وهي

(١) دائرة المعارف الاسلامية •

عوامل لا تبقى طويلا ، واذا أفادت بعض الحين ، فأنها لا تضيى الصحة على العمل أو الانتاج فى ذاته • وكثيرا ما كان زيدان يدق على هذا الوتر حين يتناول موضوعا اجتماعيا فى الهلال • وأكثر الظن أنه كان يرد بهذا على هجوم زائديه من حين الى حين • ففى مقال بالهلال وعنوانه « لا يصح غير الصحيح » عالج الموضوع كأنه موضوع اجتماعى يتصل بنواميس الطبيعة فى الحكم على الأصلح بالبقاء ، ولكن مرامى المقال كانت تتجه فى وضوح الى آفة النقد فى الشرق ، لأن أهله - كما يقول - تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، وأما الانصاف الحقيقى فى تقدير الأعمال فانه موكول الى الزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان الحقيقة (١) •

ولقد أثبت الزمان بعد أكثر من خمسة وخمسين عاما أن أعمال زيدان باقية بعد زواله وارتحاله الى عالم البقاء ، لأنها كانت أعمالا صحيحة ، والقانون الطبيعى يقول انه : « لا يصح غير الصحيح » •

(١) الهلال سنة ١٩١٢ • ومختارات دار الهلال سنة ١٩٢٦ •

أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى

اختار جرجى زيدان لطريقته فى الصياغة أن يجرى على أسلوب سهل لا تعقيد فيه ، وإذا كانت أمامه لفظتان لمداول واحد ، فانه يؤثر اللفظة السهلة المستأنة على اللفظة الغريبة المعجبية المستوحشة • أو بعبارة أخرى يؤثر اللفظ المستعمل على اللفظ المهجور •

ولقد بلغ من اغراقه فى ايثار السهولة أن اتهمه جماعة بالضعف وعدم الفحولة ، والبعد عن أساليب الفصاح • ولما كان زيدان يحب « الشعبية » فى نشر العلم وخاصة التاريخ والأدب العربى فانه آثر الأسلوب السهل ما دام هدفه الوضوح لقارئه • وقد حاول زيدان غير مرة أن يبين للقراء أسباب ايثاره لهذه الأساليب السهلة فقال فى مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » : (• • متحاشيا

الألفاظ المستهجنة ، والتعابير المعقدة ما أمكن ، متخذاً أفضل أسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة ، بغير إخلال ولا إملال) وهذه الرغبة في افهام العامة والتحدث اليهم بأسلوب يفهمونه ولا يشق عليهم قد وجدت منفذا الى ناقدية باتهامه بضعف الأسلوب : فالشيخ ابراهيم اليازجي كان غير راض عن أسلوبه وبعض عباراته العامة وكثير من ألفاظه التي لم يكن يتحرى الدقة اللغوية في تحريرها ، والمرحوم أحمد أمين في معرض الذكرى الحسين لانشاء مجلة الهلال لم يفته أن يشير الى هذه الناحية • قائلاً : (قد يؤخذ عليه عدم الجزالة في تركيب جملته ، وعدم القوة في أسلوبه ، وعدم الأناقة في تأدية معانيه ، ولكنه كان يعتمد الى ذلك عن مذهب في الكتابة وعقيدة في الأسلوب ، واختيار متعمد للمنهج الذي يسير عليه) (١) •

ولما كان هدف زيدان افهام قرائه وابلاغهم أفكاره ومعانيه عن طريق سهل لا عوج فيه ولا التواء ، فانه أثر طريق السهولة والبساطة في التعبير ، وتجنب تجنباً تاماً الالتجاء الى الحلي والزخارف اللفظية التي كان لا يزال يستعملها فريق من كتاب أخريات القرن التاسع عشر المحافظين على الأنشاء والمحتفلين بالصياغة والعبارة أكثر من احتفالهم بالمعاني والأفكار • والحق أنه كان يمثل التطور الجديد في الكتابة والنثر ، ذلك التطور الذي بدأت طلائعه تظهر في كتابات

(١) الكتاب الذهبي للهلال •

الشيخ محمد عبده المتأخرة • وأعاتته مجلته « الهلال » - بل أعانها هو - على نشر هذا اللون الجديد من الكتابة السهلة الواضحة • وقد كان من كتاب الأفكار والترسل والسهولة كذلك الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف ، وكانت المجلتان بما لهما من قوة الانتشار - وخاصة مجلة الهلال - ذواتي فضل في الدعوة الى الأسلوب الجديد في الكتابة العربية الذي يمتاز بالسهولة والوضوح، وان كان صروف ظل محتفظا برصانة الأسلوب وقوته وتماسكه أكثر من جرجي زيدان الذي أسرف في التسهيل والتجاوز الى حد كبير • ولم يسلم زيدان في عصره ولا بعد عصره من انتقاد أسلوبه وطريقته في التعبير • ومن النقد المعاصر لأسلوب زيدان ما كتبه الدكتور محمد يوسف نجم في هذا الصدد حيث يقول : (أما أسلوبه العام فيمتاز بالوضوح والسهولة ، فكان يخاطب الناس بلغتهم التي كانوا يفهمونها ويتفاهمون بها في صحفهم وكتاباتهم آنذاك ، لا بتلك اللغة الخاصة التي يلجأ اليها كتاب الأدب الصافي والشعر المنشور • وهو يكتب دون غناء أو كلفة بل يرسل قلمه حرا طليقا لا يقيد به بقيد غير قيود الدقة والافهام • وهو لا يعتمد تجميل الأسلوب وتفخيمه ، ولذا أتت كتاباته عاطلة من نخل البديع والزخرفات الكتابية والزركشات اليسانية ، والوصف المسهب الفضفاض ، فقد كان يتوخى تأدية فكرة وبلوغ غاية فحسب ، دون النظر الى اعتبارات الفنية • وليس هذا بمرر له على كل حال ،

فقد كان بإمكانه أن يحافظ على جمال الأسلوب ، دون التورط في
الصنعة والتكلف والتعقيد (١) .

ويخيل الى أن زيدان قد بولغ في الحملة على أسلوبه نتيجة
للحملة القوية التي حملها الشيخ ابراهيم اليازجي في عصره . فقد
كان اليازجي محافظا كل المحافظة على أساليب الفصاح والفاظهم ،
وكان لا تنقاداته اللغوية أثر كبير في النفوس ، فتأثر بهذا النقد قراؤه
وتابعوه في الحكم على أسلوب زيدان ، وظلت هذه التأثيرات ممتدة
بحكم المتابعة والتردد الى وقتنا هذا . والا فان أديبا وناقدا كبيرا
مثل المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل لم يقلل من شأن أسلوب
زيدان الواضح البسيط الدقيق حين نقد أحد كتبه في جريدة
«الجريدة» سنة ١٩١٢ ، وان كان هيكل قد عرج في لطف ولباقة
على تعابير زيدان الغريبة فيقول : (فانك تراه واضح الأسلوب
تماما ، يكتب للناس بلغتهم المتعارفة التي يتفاهمون بها في جرائدهم
ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المخصوصة التي يتخذها جماعة من الكتاب
درعا لهم يقيهم عند غموض الفكرة أو فساد التعابير التي يجيئون
بها ، ويكتب من غير عناء ولا تكلف ، بل يرسل قلمه حرا الى أقصى
درجات الحرية . لذلك يجيء أحيانا بتعابير لو استعادها الكاتب أتم
نظره لراها غير صالحة في الكتابة . كما أنه يجيء أحيانا أخري
بتعابير غريبة خاصة له ، كقوله مثلا في مواضع متعددة من كتابه :

(١) القصة في الادب العربي الحديث ص ١٦٦ .

« الى هذه الغاية » يريد بذلك أن يقول : « الى الآن » • ومثل ذلك تعبيران أو ثلاثة يجدها القارئ ثم يعتادها باعتياده لغة المؤلف (١) •

وبعد جرجى زيدان من الاحتفال بالعبارة الفخمة والأسلوب الانشائي كان نتيجة لاشتغاله بالصحافة الأدبية بإنشائه مجلة الهلال • كما أنه كان نتيجة لميوله الخاصة في التعبير عن أفكاره من أسهل طريق وأقربه الى نفوس العامة • والا فان أدبيا مثل المرحوم أحمد حسن الزيات قد اشتغل بالصحافة الأدبية ، وكان صاحب مجلة « الرسالة » ورئيس تحريرها ، وكاتب مقالها الأول غالبا ، ولكنه لم يؤثر الأسلوب الشائع في كتاباته بل اتخذ له أسلوبا بليغا متأنقا كل التأنق • فالمسألة اذن ليست مسألة صحافة أدبية ، ولكنها مسألة ذوق شخصي ، وميل ذاتي •

فالاحتفال بالانشاء لم يكن في حد ذاته هدفا ولا غاية عند زيدان ، ولكن هدفه كان الافهام وابلاغ المعاني في بساطة وسهولة • وما أصدق الشيخ يوسف الجازن وهو يقول عن جرجى زيدان في هلال نوفمبر سنة ١٩١٤ : (وقد أدرك فقيدنا أن الانشاء انما هو في الحقيقة أداة تفاهم بين الكاتب والقارئ ، يراعى فيه ما يراعى في الأدوات من المتانة والبساطة ، ولا سيما في الصحافة ، فخالف

(١) في اوقات الفراغ • للدكتور محمد حسين هيكل • ص ٢١٧ •

بذلك الذين يعدون الانشاء غاية بحد ذاته ، فيصرفون قسما عظيما
من وقتهم وعنائهم في اتقانه) •

وقد وصف أحد المحتفين بجرجي زيدان أسلوبه الكتابي بأنه
(صورة نفسه ، وأنه الأسلوب التلغرافي البسيط الواضح الذي
يحرص على المعنى أكثر مما يحرص على اللفظ ، فهو لا شك كان
منبسط النفس غير معقد الأحاسيس) (١) • ثم عاد هذا الكاتب مرة
أخرى الى أسلوب زيدان فوصفه بأنه (أسلوب العلماء الذين
يؤمنون بأن الألفاظ أدوات للمعاني) (٢) • ولكن هذا الكاتب نفسه
قد عاد في الكتاب نفسه يعيب أسلوب زيدان بأن معالم أسلوبه لم
تكن واضحة وضوح أسلوب الأدباء ، فهو عالم وباحث ومفكر (٣) •
وترى الاضطراب باديا في هذه الأحكام ، فكيف يكون الأسلوب
أولا بسيطا واضحا ، ثم يعود غير واضح المعالم مثل أسلوب الأدباء ؟
وقد وصف الأستاذ أنيس المقدسي أسلوب جرجي زيدان بأنه
(سهل يأنس به الجمهور ولا تنكره الخاصة) (٤) • وهذا الوصف
مشتق من وصف زيدان نفسه لأسلوبه الذي يقول فيه : (أفضل
أسلوب تفهمه العامة ، وترضاه الخاصة) كما أوضحنا في بداية
هذا الفصل •

(١) من أعلام الفكر والادب . ص ٨٥ .

(٢) المصدر نفسه . ص ٨٦ •

(٣) المصدر نفسه . ص ٨٦ •

(٤) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١١ •

ولم يفت مؤلف كتاب « تطور الرواية العربية الحديثة » أن يتناول أسلوب زيدان في رواياته التاريخية ، ولم يتجاوز ذلك الى أسلوبه في دراساته الأدبية والتاريخية • فيقول عن أسلوبه في الروايات : (• • • • •) . يعتمد الى أسلوب سهل مبسط أقرب الى أسلوب السرد العلمى المبسط الذى يفيد انقارىء ويوصل اليه معلوماته • وقد كان خليقا بزيدان أن يكون أسلوبه في رواياته غير أسلوبه في مباحثه ودراساته • فان الرواية تحتاج الى شيء من فنية العبارة وأناقتها وعلو أنشائها ، ولكن زيدان لم يحفل بذلك في رواياته لأنه كان يرمى من ورائها الى تعليم التاريخ عن طريق القصة •

وقد اضطر زيدان في رواياته الى استعمال بعض التعبيرات العامية في الحوار ، ففي رواية « استبداد الماليك » - مثلا - نجد صورا من عبارات تمثل لغة الناس في عصر الماليك ، وقد تسربت اليه هذه العبارات من كتب التاريخ التى كتبت في ذلك العصر • وليس معنى هذا أن زيدان كان ميالا الى العامية أو داعيا لها ، بل عنى الضد من ذلك نراه مناصرا للفصحى على العامية • فحينما أتقى المستر ويلكوكس المهندس بالرى المصرى محاضرة في سنة ١٨٩٣ عنوانها « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » • وكان مكان القائها في نادى الأذربكية ، سمع الناس من هذا الداعية الداهية كلاما غريبا ، فقد زعم هذا الرجل أن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع هو أنهم لا يزالون الى يومه يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو أنهم تخلصوا منها ، وألفوا وكتبوا بالعامية لأعان

ذلك على خلق ملكة الابتكار وتمييزها عندهم • وحينما انتهى ويلكوكس من ألقاء محاضراته وتم نشرها سنة ١٨٩٣ في مجلة «الأزهر» التي آلت ملكيتها الى ويلكوكس نفسه وشريكه الأستاذ أحمد الأزهرى ، وكان نشرها بلغة ركيكة ، لم يسكت جرجى زيدان على هذا الكلام الفارغ ، ورد على ويلكوكس بخطئه فيما ذهب اليه من رأى ، وارتأى زيدان أن من الممكن التقرب الى الأفهام بتجنب الألفاظ الغريبة والأساليب المعقدة ، وختم رده المقنع المفهم ببيان مذهبه وهو أنه (يجب أن تكون عبارة الكاتب فى البحوث التاريخية والأدبية عبارة بسيطة ، واضحة ، سليمة ، خالية من كل تعقيد ، حتى تكون المعانى جلية للمطالع كل الجلاء ، لا يقف لحظة لفهمها ، ولا يحتاج الى مراجعة المعاجم اللغوية) • وعد زيدان عجز الكاتب أو المؤلف عن افهام الناس نقصا فى واجبات صناعته ، واخلالا بشروط مهنته •

وتفطن زيدان فى خلال رده على ويلكوكس ومن ذهب مذهبه فى الدعوة للعامية الى أننا لو استبدلنا العامية باللغة الفصحى ، تكون كمن ينقذ نفسه من شر - لو صح أن الفصحى شر - ليقع أو يوقع نفسه فى شر أعظم ، لاختلاف العامية باختلاف الأصقاع والأقطار العربية ، فنكون قد عددنا اللهجات الإقليمية على حين أن اللغة الفصحى واحدة وموحدة بين أبناء العروبة فى كل أرض • فالعامية توجد تباعدا بين أبناء العروبة ، وتخلق بينهم هوة محيقة ، على حين تؤلف اللغة الفصحى ما بينهم •

ولقد وقف زيدان من الألفاظ الغريبة ، والاستعمالات القديمة موقفاً محدداً لم يحد عنه ؛ وعنده أن الذين يكتبون أو يؤلفون لبيان قدرتهم على الإنشاء والغوص على المعاني العويصة والألفاظ الغريبة إنما يكتبون لأنفسهم أو لطبقة خاصة لغرض خاص ، ومع فضلهم ومنزلتهم فانهم يكتبون لغير الخدمة العامة (١) .

وكان إيمان زيدان بعدم التقليد والمحاكاة في أسلوب الكتابة والتأليف وفي استعمال الألفاظ ، إيماناً بالتطور اللغوي للألفاظ والأساليب ، وهو دليل على حياة اللغة وحيويتها وبعدها من الجمود على قوالب مصبوبة . وكان يرى أن من حاول الوقوف في سبيل التطور اللغوي فقد عارض سنن الطبيعة . فان الألفاظ القديمة تذهب ويحل محلها ألفاظ جديدة . على أن ابتعاد زيدان من المعاظلة في استعمال الألفاظ الغريبة ، لم يعن بحال أنه كان منحرفاً إلى دعوة العامة التي قامت في أيامه ، وعادت بعض الأصوات الخافتة لها من قريب .

وكان زيدان - بالإضافة إلى تطبيقه العملي في مؤلفاته وكتابه للألفاظ والعبارات المألوفة - لا يدع مناسبة تمر دون الهجوم على الأساليب المصطنعة الخافتة بالزخارف اللفظية والاثراب . ففي السنة الخامسة من الهلال ينتقد بعض الكتاب الذين يستعملون غير المألوف

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٢ - المقدمة ص ٢ - ٤ .

من الكلام اظهارا لمقدرتهم الانشائية فيقول : (وقد قرأنا في كتاب صدر بالأمس عبارة تمثل ما نحن بصدده أراد بها كاتبها وصف المتحاربين فقال :

وقد هاجت منهم الضراغم ، وطارت القشاعم ، وثارت انغماغم . وماجت الحضارم) ، وكانت البساطة والسلاسة والسهولة والوضوح الذي ميز كتابات زيدان واضحا في مجلة الهلال أولا ، وفي مؤلفاته الكثيرة ثانيا . والى هذه البساطة يعزى السر في انتشار مجلة الهلال ، وانتشار كتب زيدان انتشارا لم يعهد له مثيل في الانتاج الحديث .

ولعلنا بعد هذه الدراسة السريعة لأسلوب زيدان نرى من التوضيح أن نعرض نموذجا لكتابه يؤيد ما ذهبنا إليه النقاد ، فإن القضايا بغير مثال لا تتضح معالمها في الأذهان . وأسلوبه التقريرى في آداب اللغة العربية والتمدن الاسلامى وتاريخ مصر الحديث معروف متداول بين أيدي قراء هذه الدراسات . أما أسلوبه في البحوث الاجتماعية فأن المقال التالى - وهو مما نشره الهلال سنة ١٩١٢ - يدل عليه تمام الدلالة ، ويمثله أصدق تمثيل .

قال جرجى زيدان بعنوان « لا يصح غير الصحيح » :

ان بقاء الأصلح من القواعد الطبيعية الداخلة فى ناموس النشوء والارتقاء . وهو عام يجرى على كل شىء من الطبيعيات

والمعنويات والأدبيات • فكما يقضى على بعض الحيوانات بالانقراض لأنها لا تصلح للبقاء فيما يحيط بها من البيئة ، فهو يقضى أيضا بذهاب ما لا يصلح للهيئة الاجتماعية من الآراء أو القوانين ، واستبدالها بما يلائمها • ويحكم بانقراض العادات أو الطقوس أو نحوها مما لا يناسب شئونها • وقس على ذلك سائر أحوال الاجتماع ، مما لا يحتاج الى تطويل في اثباته • وانما الغرض الآن اثبات ناموس آخر ، هو فى ظاهره اجتماعى أو أدبى ، لكنه ينطبق على سائر المجارى الطبيعية ، ونعنى به قولهم : « لا يصح غير الصحيح » •

ان هذه القضية من الظواهر الطبيعية ، بل هى من أصدق تلك الظواهر ، لأن الطبيعة بذاتها لا تعرف غير الصحيح ، ولا تقبل التعلق أو التمويه ، ولا تعرف للسبب الواحد الا نتيجة واحدة ، ولا عبرة لديها بالظواهر الخارجية ، لأنها تعول على الجواهر دون الأعراض ، فاذا أدنيت قطعة من الحديد الى مغناطيس اجتذبتها اليه لأنها حديد • ولو جعلتها بين عشرات من قطع المعادن المختلفة لاستخرجها من بينها وأن تشابهت ظواهرها ، ولا يخدعه تلوين تلك القطعة بغير لونها الأصلي ، أو تشكيّلها بغير شكلها •

على أن هذا الناموس يشمل أيضا عالمى النبات والحيوان ، وأن لم يظهر فيهما واضحا مثل ظهوره فى الجماد ، لتعدد القواعد الحيوية ، واختلاط أسبابها ونتائجها •

فإذا انتقلنا الى التفاعل المعنوى أو الأدبى فى نظام الاجتماع رأينا هذا الناموس أقل ظهورا وأبطأ انتاجا لأنه يتوقف على قوى أكثر تشوشا واختلاطا . ولكن لا بد من هذا الظهور عاجلا أو آجلا . فكم من الآراء العلمية طمستها الأغراض ، وحالت دون ظهورها دهرًا طويلا ، ثم ظهرت كالشمس وفاز أصحابها ، كما فاز القائلون بدوران الأرض مثلا بعد أن حكم على قائله بالكفر .

وهو يصح أيضا فى الآراء الإصلاحية اذا وقفت فى سبيل ذوى الأغراض من المقلدين الجامدين ، فانها قد تبقى قرونا يغشاها غبار التمويه والمغالطة ، ثم تظهر ولو بعد حين - كان ذلك حظ أكثر المصلحين من الفلاسفة القدماء الى الشارعيين والأنبياء .

وكما أن الآراء الصحيحة قد يغشاها التمويه ولا تظهر الا بعد حين ، فالآراء الفاسدة قد يحييها التمويه حينًا فلا يظهر فسادها الا بعد مرور الأجيال ، لكن لا بد من ظهوره . وقس على ذلك ما يقبل المبالغة أو التمويه من الأعمال التجارية أو الصناعية ، فان أصحابها يعلنون عنها ويحسنونها ويبالغون فى اطرائها ، لكن نجاحها أخيرا لا يكون ألا على قدر ما تحويه من الصحة . ويدخل فيه الاعلان عن بعض العقاقير الدوائية الخاصة ببعض الأمراض ، فان أصحابها يجعلون أكثر تعويلهم على الاعلان ونشر الشهادات ونحوها ، فاذا لم يكن الدواء مفيدا ذهب الاعلان عبثا . ولا خلاف فى أن الاعلان يفيد صاحبه ، لكنه لا يخفى الحقيقة ، وإنما يعجل

ظهورها • واعتبر ذلك في الاعلان عن الكتب وغيرها من ثمار
القرائح ، فانها أكثر تعرضا للغرور من سائر « المعروضات » ، لأن
الانسان مفتون ببنات أفكاره ، وكتابنا ما يزالون يعيدون عن النقد
الصحيح في بيان حقيقة ما يعرض عليهم من المؤلفات ، ويندر فيهم
من يخلص النية في نقد الكتاب وبيان حقيقته •

وقد يكون من أسباب التمويه في وصف ثمار القرائح ثروة
المؤلف أو وجاهته في الهيئة الاجتماعية ، أو نفوذه في الدولة •
فينصرف هم الكاتب الى اطرائه تزلفا أو تهيبا • وبالعكس اذا كان
المؤلف متهما في دينه ، أو مخالفا للمقرظ أو المؤرخ في المبدأ ، أو
الرأى ، أو المذهب ، فانه يبغضه حقه ، أو ينحى عليه بالظعن •
وهذه العلة قديمة في الشرق ، أصيب بها أكثر المؤرخين عند ذكر
معاصريهم من الأدباء والشعراء •

واعتبر ذلك في سائر العصور الى الآن ، ولا سيما في الشرق ،
فأن أهله تعودوا التملق والتزلف والمجاملة ، حتى أصبح طلاب
الأدب لا يعولون على ما تقوله الصحف في وصف الكتب ، ويندر
لأحدهم أن يبحث في اقتناء كتاب لمجرد ما يرى من تقرظه في
الصحف ، خلافا لما يفعله قراء اللغات الأفرنجية ، فانهم يتقنون
بما يقوله أرباب النقد في الصحف الراقية • وأما الانصاف الحقيقي
في تقدير الأعمال فانه موكول للزمان ، وهو الضامن الوحيد لبيان

الحقيقة ، اذ تتوالى الأجيال ويمضى المعاصرون بما تضمنه جوارحهم
من تضاعف أو تحاسد ، ويبقى العمل ، فينظر اليه أهل الأجيال
التالية بعين خالية من الغرض ، فيحلونه محله من الاجلال أو
الاغفال ، عملا بسنة البقاء للأصلح • وهى مبنية على القاعدة التى
صدرنا بها هذه المقالة ، نعى « لا يصح غير الصحيح » •

موقف حائر

لقد تعرض جرجى زيدان بدراساته لتاريخ العرب والاسلام، وبرواياته التى تناول التاريخ الاسلامى على مداه الطويل، لانتقادات واتهامات كثيرة من الفرق الاسلامية المختلفة ، والطوائف المنعددة . والحق أنه فتح على نفسه بابا ما كان أغناه عنه ! ولكن الرجل كان باحثا ، وكان يفتش فى تاريخ واسع متشعب للعرب والمسلمين ، وما كان يدري أنه لن يرضى أحدا مهما وقف موقف المحايد . حتى المسيحيون أنفسهم لم يسلم من انتقاداتهم .

والذى يكتب فى تاريخ العرب والحضارة العربية الاسلامية لا بد أن يصادفه كثير أو قليل من أصحاب الميول والنزعات المختلفة الذين قد لا يرضون عن كلامه ، وقد يسيئون الظن به ويتهمونهم بالهوى أو الميل مع هذا أو ذاك .

وهناك من المسائل المذهبية الشائكة ما لا يسلم من يخوضها - ولو متحرزا - من اتهامه بالتعصب أو التحزب لفريق على فريق • ومهما بلغ الحذر والحرص بالباحث المؤلف في أمثال هذه الشئون فلن يسلم من التهمة • وقد تحمل الريبة على أن يساء فهم كل كلمة يقولها وأن تنزل في غير منزلتها التي أرادها كاتبها •

وقديما اتهم الامام ابن حزم الأندلسي وشنع عليه لأن له رأيا يخالف رأى الشيعة في عبد الرحمن بن ملجم قاتل الامام على ابن أبي طالب • وما زلت أذكر الحملة الشديدة التي حملها عليه الأستاذ العلامة عبد الحسين أحمد الأميني في كتابه « الغدير » (١) • وما زلت أذكر ما تعرضت له كتب « العقد الفريد » ، و « الملل والنحل » ، و « البداية والنهاية » لابن كثير المؤرخ ، و « محاضرات تاريخ الامم الاسلامية » للشيخ محمد الحضري ، و « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » لأحمد أمين ، و « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل وغيرها من نقد عنيف ، وهجوم شديد لأنها تناولت مسائل تمس بعض المذاهب الاسلامية ، أو تعرضها من وجهات نظر مغايرة ، أو تسكت عن ابداء الرأي فيها على حين يرى أتباع هذا المذهب أو ذاك وجوب تناولها •

ومن هنا كان موقف جرجي زيدان مؤرخ الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية حرجا كل الحرج • فهو لا يعدم ان أرضى هذا

(١) الغدير - ج ١ ص ٢٦٠ •

الفريق أن يسخط فريقا آخر ! وهو لا يعدم ان ذكر رجالا من
أهل السنة أن يتهم باغفال رجال من أهل الشيعة •

وعلى الرغم من الحيدة المطلقة ، ومن التجرد من الحزب
الذين اتبعهما زيدان وهو يؤرخ للعرب والاسلام وتمدنها ، فإنه
لم يسلم من سهام الناقدين تهمه بما لا يكون قد خطر للرجل
على بال •

وقد أخذت الاتهامات تتوالى على الرجل من كل جانب منذ
اللحظة التي امتشق فيها القلم ليؤلف • وقد تكاثرت عليه الاتهامات
الى حد لم يجد معه بدا من الإشارة اليه في مقدمات بعض كتبه •
ففي مقدمته لتاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثالث - يقول ويكاد
الأسى يعتصره : (تصدينا للكتابة في تاريخ الاسلام واتقراء لم
يتعودوه ، والمسلمون معجبون بتاريخهم ، وغير المسلمين لا يعرفون
عن الاسلام ألا ما وصلهم من مطاعن الأجيال المظلمة ، فكان حظنا
من المؤاخذه مضاعفا ؟ غضب بعض المسيحيين لأننا - على زعمهم -
بالغنا في ذكر فضائل الاسلام حتى اتهمنا بعضهم بالمرور من
النصرانية ، وقال بعض المسلمين اننا قصرنا في ذكر فضائل
الاسلام) •

فتصور الى أى حد بلغ موقف الرجل وحيرته بين أهل
الأديان والمذاهب ، حتى لقد اتهمه بعض قومه من المسيحيين بأنه

مارق من دينه ، واتهمه بعض المسلمين بأنه لم يذكر فضائل الاسلام
على أكمل وجوها ، فقصر في ذكرها .

ولقد كانت الحساسية التي تقابل بها مؤلفات زيدان في العرب
والاسلام بالغة شديدة عند أهل كل فريق من تلك الفرق المتعددة
في الاسلام . فهم يقرءون كل كلمة من كتبه . ولا يقفون عند
ظاهر معناها ، بل كثيرا ما كانوا يقلبونها على معان مختلفة ، وقد
يحملونها أكثر مما تحتمل ، وقد ينسبون الى الرجل ما لم يفيض
به صريح عبارته .

وكان المتهمون لزيدان لا يكتفون بالاشارة العابرة ، واللمحة
الخاطفة ، ولكنهم كانوا يطيلون القول في اتهمه ، حتى لقد نشرت
مجلة « العرفان » في صيدا التي أنشأها المرحوم الشيخ أحمد عارف
الزين نقدا طويلا لأحد كتب زيدان زادت صفحاته على الخمسين
صفحة . . . وقد وقع المقال شيعي نجفي من أسرة كاشف الغطاء (١) ،
وفيه عتاب لزيدان لأنه أهمل أن يذكر في كتابه بعض علماء الشيعة
الأمامية الذين ذكر أسماءهم كاتب المقال . وقد لاحظ زيدان أن
أصحاب هذه الأسماء - التي زعم الكاتب إهمالها وإغفالها - ليسوا
من علماء الأمة المشهورين ، ولم يخلفوا آثارا تفيد المطالعين ، فهم
محصورون في نطاق ضيق لم يمتد الى سعة غيرهم من المذكورين .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٣ ص ٦ .

ولقد لاحظ بعض الذين ترجموا لزيدان أو أَلَمُوا المأنا سريعا بسيرته ما تعرض له من سخط بعض المسلمين على آرائه التي لم يأت بها الرجل من عنده ، ولكنه كان ينقل عن مصادر متباينة في الاعتقادات والمذاهب والميول ، ولعلمهم - وهم مسلمون محافظون - لم يرضوا أن يعمد زيدان - وهو الكاتب المسيحي - الى أن يخوض في موضوعات اسلامية بحته كما يقول المستشرق كراتشكوفسكى (١)

والحق أن الباحث في أمثال الموضوعات اننى عاجلها زيدان في تاريخ الأدب العربى وتاريخ التمدن الإسلامى معذور حين لا يتأتى له ارضاء الناس على اختلاف ميولهم . وكأنما أراد الرجل فى مقدمة لأحد تصانيفه أن يلتمس لنفسه العذر فيما وقع فيه من الحرج ، الذى هو ليس حرجا مختصا بزيدان وحده ، ولكنه حرج لمركز الكاتب انشرفى عموما بين قرائه حين يتحدث فى مثل هذه المسائل، فليس فى الدنيا جمهور استحکم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية ، فهم مختلفون موطنًا ومشربا ومذهبا وتربية ، فلا يتأتى لكاتب ارضاؤهم جميعا ، ولو أوتى علم الأولين والآخرين (٢) .

ولقد بلغ من حيرة زيدان فى هذه الاتهامات أن ميزان الاتهام لم يكن على سواء فى أيدي المتهمين المختلفى المشارب والأهواء ،

(١) دائرة المعارف الاسلامية .

(٢) مقدمة الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية .

فاذا أطلال في موضوع لم يعدم من يقول له انك أطلت فيما لا تحمد فيه الأطلالة ، واذا أوجز في موضوع لم يعدم من يتهمه بالتقليل من شأن هذا الموضوع . واذا سكت عن موضوع قيل له لم أغضيت عن تناوله . وقد استطاع الدكتور محمد حسين هيكل أن يقف موقف الاتهام لزيدان بأنه في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » قد سكت عن الكلام على القرآن الكريم والحديث النبوي سكوتا مطلقا ، كأنهما لا يدخلان في تاريخ أدب اللغة العربية ، بينما يدخل الطب والكهانة . وأخذ الدكتور هيكل يوجه الاتهام الى جرجي زيدان قائلا : (وأحسب أن لنا من الحق أن نسأل عن سبب هذا السكوت . لم لم يذكر المؤلف شيئا عن التاريخ الأدبي للقرآن ، وصلته بالأدب الجاهلي والفرق بينهما ؟ القرآن كتاب كريم ، ذو شأن عظيم ، لا في أمر الدين الاسلامي فقط ، بل كذلك في أمر آداب الأمة العربية وسياستها وكل جهات حياتها . لذلك كنا نود أن يوقفنا كاتب « تاريخ آداب اللغة العربية » على الأصول الأدبية الذي استمد منها هذا الكتاب وجوده » (١) وأخذ الدكتور يتلمس الأسباب ويتصيد الأعذار لزيدان في هذا الاغفال ، ثم خلص في النهاية الى استنتاج بأن زيدان لعله رأى أن في كلامه عن القرآن والحديث وأصولهما وقيمتها الأدبية ما يمس بعض العقائد . وهذا استظهار غريب من الدكتور هيكل ، لأن الخوف من المساس ببعض العقائد لا يعالج

(١) في أوقات الفراغ - ص ٢٢٨ .

بالإهمال والافعال ، ولكنه يعالج بالحيدة والحذر فى تناول الموضوع .
وليس التأريخ للقرآن والحديث موضوعيا مما يخشى منه المساس .

وبالغ بعض المتهمين لزيدان ، فاتهموه بالشعوبية ، والتعصب
لغير العرب على العرب ، ومحاولة التهوين من شأن العرب والاسلام .
وكان قائد هذه الحملة الشيخ شبلى النعمانى المصلح الهندى .
ولكن من حسن حظ زيدان ان هذه التهم من جانب كان يقابلها من
جانب آخر تقدير له وأشادة بمواقفه الكريمة من العرب والاسلام؛
فالمرحوم طاهر الطناحى يشيد بخدمات زيدان للعرب والاسلام(١)،
والأستاذ أنيس المقدسى يقرر أن روايات زيدان التى تدور على
تاريخ العرب والاسلام قد أحدثت فى نفوس النشء ، جيلا بعد
جيل ، وعيا قوميا ، وحسرك فىهم الميل الى دراسة التاريخ
العربى (٢) . وصاحب كتاب « من أعلام الفكر والأدب » يؤكد
أن جرجى زيدان كان يتناول ذلك بحسن نية على أساس أنه كاتب
عربى يكتب للعرب (٣) . ومعنى هذا الكلام أنه ليس من المعقول
أن يحاول كاتب عربى قح - مثل زيدان - أن يجرد قومه العرب
من فضائلهم أو يغمزهم فى تاريخهم .

وكيف يخطر على بال متهم أن يقول ان زيدان كان متعصبا

(١) عصاميون عظماء من الشرق والغرب ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) الفنون الادبية وأعلامها . ص ٥١٧ .

(٣) من أعلام الفكر والأدب . للأستاذ أنور الجندي ص ٨٩ .

على العرب ، مع أنه فى أكثر كتبه يعلى كثيرا من شأنهم ، حتى انتهى به ذلك الى حدود المغالاة والمبالغات . فهو يضع العرب ، من حيث الثقافة والعقلية ، فى مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عن العرب ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفا ، ويرفعهم ويرفع حكماءهم فى الجاهلية الى مرتبة فى الفكر والنظر لا تقل عن نظر أعظم الفلاسفة (١) .

وقد بلغ من غلو زيدان فى تقديره للعرب من ناحية علومهم وحضارتهم أن الدكتور شوقى ضيف وهو يعلق تعليقاته ، ويضيف اضافاته الثمينة فى هامش الطبعة الأخيرة من تاريخ الآداب العربية لزيدان ، وجد نفسه مضطرا لأن يعلق على هذا الغلو قائلا : (ينبغي ألا نبالغ فى معرفة عرب الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز ملاحظات أولية بسيطة) (٢) كما لم يفت الدكتور محمد حسين هيكل أن يلاحظ هذا الغلو من زيدان فى تقديره لعلوم العرب فى الجاهلية ، فقال : (نبداً فننقد الصورة التى وضع بها - زيدان - معارفه التمهيدية . فإن الذى يقرؤها يكاد يتصور أن عرب الجاهلية - على أنهم قوم بدو رحل - قد بلغوا من العظمة فى العلم والأخلاق والسياسة ما يناهض أرقى الأمم فى القرن العشرين ،

(١) انظر تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ - ص ٢٤ .

(٢) تراث الانسانية . المجلد الرابع . ص ٨١٦ من بحث لمحمد عبدالغنى

وذلك أمر لا يسهل تصديقه (١) • وممن انتقد على زيدان مبالغته
في بيان مآثر العرب والتنويه بفضلهم الأب لويس شيخو
اليسوعي (٢) •

وعجيب جدا أن يتهم زيدان في وقت واحد بالتعصب على
العرب ، ثم يعاب بأنه بالغ في التعصب لهم والتنويه بفضلهم ! وأن
يتهم بتقصيره في حق الاسلام ، ثم يمدح في الوقت نفسه بأنه خدم
الاسلام ! وهذا التناقض هو الذي أوحى لنا بعنوان الفصل الذي
نرجو أن يكون قد وضع الأمر في نصابه •

(١) في أوقات الفراغ ، ص ٢٢٢ •

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٢ ص ٧ •

بين العلم والسياسة

لقد كان جرجى زيدان من رهبان العلم الذين عكفوا على خدمته ، وترهبوا في محرابه ، ولم يمزجوا بين الاشتغال بالعلم والسياسة الا بذلك القدر الضروري الذى لا يجعل من المرء انسانا متورطا ، أو منعزلا عن محيطه الذى يعيش فيه .

ولقد فرضت بعض ظروف معينة على طائفة من علمائنا وأدبائنا وشعرائنا أن يخوضوا معترك السياسة ، ويسهموا فيها بالقدر الذى سمحت به ظروفهم وقدراتهم والجو المحيط بهم . كالبارودى الشاعر ، وعبد الله فكرى الكاتب المترسل ، وأحمد فارس الشدياق الأديب اللغوى ، وأديب اسحاق ، وإبراهيم المويلحى ، والشيخ محمد عبده ، والأمير شكيب أرسلان ، والدكتور فارس نمر وغيرهم . ولكن بعض علمائنا لم يحبوا السياسة ، ولم يتورطوا فى

الاشتغال بها ، كالدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف الذي ترك
الاشتغال بالسياسة لزميله ورفيقه الدكتور فارس نمر ، وتفرغ هو
للعلم ومسائله في المقتطف .

وجرجي زيدان غلب عليه الاشتغال بالعلم والأدب والتاريخ،
ولكنه لم يجرد نفسه تجريدا تاما من المشاركة في أحداث عصره
بالميل والرأى والمدافعة .

ولقد عاصر جرجي زيدان حوادث الانقلاب العثماني، وحركة
الدستور ، وحركات الصراع العربي للتخلص من السيادة العثمانية .
ولم يشأ الرجل أن يعيش على هامش الأحداث أو بمعزل منها ،
فكان له رأى واضح صريح في ذلك .

فحين أعلن الدستور في تركيا تحت ضغط حزب الاتحاد
والترقي في ٢٤ يوليو سنة ١٩٠٨ سرت في البلاد فرحة ، كان لها
دوى عظيم بين أبناء الشرق العربي الذين كانت لا تزال تربطهم
بالدولة العثمانية روابط رسمية ، فوق روابط الأخوة الإسلامية
التي كانت تجمع بين المسلمين في كل أرض . وما كاد الناس
في تركيا والبلاد العربية المرتبطة بها سياسيا يفرحون بالدستور
الجديد ، حتى خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩ ، وولى مكانه
أخوه السلطان محمد رشاد . وكان فرح الناس بخلع عبد الحميد

لا يقل عن فرحهم بالدستور (١) ، وفرح العرب بالعهد الجديد والتمسوا فيه سبيلا الى الاصلاح ، وشارك شعراء ذلك العهد في الفرح بالدستور وتعلق الآمال الكبيرة عليه . وما كاد الناس يفرحون باعلان الدستور حتى سادت موجة من انتشاؤم وخيبة الأمل في نظامه . فقد كانوا يرجون منه أن يغير الأحوال ، ويصلح المائل من الأمور في يوم وليلة . ولكن الأتراك لم يكونوا على تمام الاستعداد للحياة الدستورية الجديدة التي فوجئوا بها ، وظهر من تطبيقات الدستور على الحياة أن هناك من وجوه النقص فيه ما يوجب اصلاحه اصلاحا جذريا .

وانقسم الناس في ذلك الى فرق ، فمنهم المتعجلون للاصلاح، ومنهم الذين ينشدونه مع التريث ، وعدم الطفرة . ولم يجد زيدان من الحق أن يسكت ، وقد ازدحمت المعركة بالمتكلمين ثرا وشعرا ، حتى لقد أخذ معروف الرصافي شاعر العراق ينظم قصائده متهمكا يائسا ، وأخذ الشاعر القروي في البرازيل يرسل صوته من بعيد في المهجر الجنوبي متحسرا على الآمال والأمانى التي ضاعت ، ولم يجد النداء ، ولم يلب غير تجاوب الأصداء وإذا بنا نرى جرجي زيدان يدلى بدلوه بين أصحاب الآراء ، فيكتب مقالا في مجلة الهلال سنة ١٩١٠ عقب زيارة له الى سوريا ولبنان ، فيلاحظ موجة التشاؤم واليأس التي سادت بعض النفوس ، ويحذر من

(١) الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث . ص ٨٥ - ٨٦ .

التمادى فى ذلك ، ويترقى فى مطالبة المصلحين العثمانيين بالاصلاح السريع مع ما عاتته الدولة العثمانية فى عهود الاستبداد الطويلة ، فيقول : (وطائفة تعجلت استعمار الدستور ، فهى تريد أن تصير المملكة العثمانية التى قضت قرنين فى حال الاحتضار ، وقد نضبت مالىتها ، وأجذبت أرضها ، وأظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها ، وفسد كل شيء حتى أخلاق أهلها ، واختل نظام اجتماعها ، وفرق التعصب بين طوائفها ومذاهبها - تريد هذه الفئة من المنتقدين أن تصير هذه المملكة فى سنتين مثل أرقى ممالك أوروبا ، وهذا مستحيل ..) •

والأنفة والتمهل الذى يطالب به زيدان رجال السياسة فى تركيا تنفيذا للدستور ، هما وسيلته التى ينادى بها فى كل حركة دستورية أو نيابية • فهو يرى أن الدستور والحكم النيابى لا ينفع ما لم تكن الأمة مهيأة له ومستعدة لقبوله • ويبدى زيدان رأيه هذا عن الحكم النيابى فى مصر من مقال له فى مجلة الهلال سنة ١٩٠٧ عنوانه « الحكومة الدستورية » • فهو يستعرض الحركات السياسية والدستورية فى مصر فى القرن التاسع عشر الى أن قامت مصر تطلب إنشاء مجلس النواب (ولم يكن ذلك الطلب عن أخلاص وروية ، فجاء مساعدا على ما حدث فى مصر من الانقلاب السياسى المعلوم بعد الحوادث العراقية • والسبب الحقيقى فى ذلك أن الأمة لم تكن مستعدة لقبول هذا الإصلاح ، فتأولته كما يتأول الطفل الرضيع

قطع اللحم ، وهى مغذية بنفسها ، ولكن معدته لا تقوى على هضمها ، فالجوع خير له منها • والأمة اذا لم تكن تهيأت للحكومة الدستورية فالدستور يضرها ، والأمور مرهونة بأوقاتها) •

على أن هذه النظرة المستأينة المترفة فى الأمور ، تدل على اعتدال الرجل فى رأيه وعدم تطرفه فى أحكامه السياسية ، فهو لا يذهب الى الأطراف المتناقضة ولكنه يقف موقف المعتدل ، وقد أشار الى هذا أحد المؤرخين له بقوله : (ولقد كانت آراء جرجى زيدان وأفكاره ومذاهبه فى غاية الاعتدال) (١) • واعتدال زيدان فى السياسة هو قرين لاعتداله فى ميادين الفكر والعقل ، وإلى هذا الاعتدال الأخير يشير كراتشكوفسكى بقوله : (ولم يكن زيدان من أصحاب الأفكار الثورية فى الميدان العقلى) ، أما اعتداله فى السياسة فقد وصفه الأستاذ أنيس المقدسى بقوله : (ومن المعتدلين الناظرين الى الأمور بعين الروية جرجى زيدان ، منشئ الهلال ، فهو من طلاب الإصلاح السياسى ، ولكنه لم يكن مناوئاً للعثمانية . والذي يطالع أعداد مجلته ، ولا سيما فى السنين الأولى ، يراه عطوفاً على الدولة - يعنى الدولة العثمانية - ولعله كان يرى ، كما كان يرى أديب أسحاق وأصحاب المقطم وأمثالهم أن الرابطة العثمانية لازمة للشرقيين ، وأن طلب الإصلاح لا يعنى القضاء عليها ، أو استبدال رابطة أخرى بها) (٢) •

(١) من أعلام الفكر والادب . ص ٨٩ .

(٢) الانجازات الحديثة فى العالم العربى . ص ٢٤ .

ولم تكن ميول زيدان السياسية ونزعاته ليجلوها في مقالاته السياسية التي كان يكتبها في الهلال من حين الى حين .. ولكنه كان يشها حتى في بعض مؤلفاته التي قد تكون ملائمة لآراءه . ففي تراجمه التي جمعها في كتاب « تراجم مشاهير الشرق » كان يتهمز الفرصة ، فيعلن عن آرائه السياسية ويوضحها ، كما فعل في ترجمته للزعيم مصطفى كامل . وقد كان له في الثورة العربية رأى معروف صرح به في خلال سيرته لمصطفى كامل ، فهو يرى (أن زعماء الجند كان أكثرهم من غير المتعلمين ، فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة ؛ فبعد أن كانت نهضة وطنية سياسية ، تحولت الى ثورة عسكرية آلت الى الاحتلال الأنجليزى وأمره معلوم . فلما ذهبت دهشة الحرب اتبته عقلاء الأمة فوجدوا أنفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شرين ، لاعتقادهم أنهم سفكوا دماءهم وبذلوا أموالهم للتخلص من شر الشراكسة - وهم يختلفون عنهم جنسا ويشتركون معهم في الدين - فاذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة أجنبية تختلف عنهم جنسا ودينا) (١) .

وقد بلغ من اهتمام زيدان بالسياسة أنه ترجم لبعض رجالها تراجم لا بأس بها في كتابه « تراجم مشاهير الشرق » ، وجعل في الكتاب بابا مطولا خاصا برجال الادارة والسياسة ، بجانب رجال الإصلاح ، والأدب ، والشعر في أبواب أخرى . ولم تخل بعض

(١) تراجم مشاهير الشرق « ج ١ ص ٢١٤ .

الفصول التى كتبها فى « الهلال » من معالجة بعض المسائل السياسية كما نجد فى فصوله عن الحركة الدستورية ، وعن تاريخ الأحزاب السياسية ، وعن الحكومة الدستورية ، وعن الاشتراكية التى يعد من أوائل من كتبوا فيها فى الشرق العربى .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان لم يكن متعاطفا مع سياسة الحزب الوطنى ، ولم يكن من أنصار مصطفى كامل ، فإنه قد رثاه مرثية جليلة مؤثرة بعنوان « مصطفى كامل رجل عظيم » . وبالطبع كانت المرثية فى عدد من أعداد الهلال سنة ١٩٠٨ . وقد فانت الكياسة واللباقة جرجى زيدان فى هذه المرثية - مع أن الرجل كان معروفا بكياسته - فانتقد زعيم البلاد وهو لا يزال مسجى فى أكفانه . ولعل مجانبة هذا النقد ومجافاته للذوق والشعور العام ، والخطأ فى توقيته فى أعقاب الوفاة ، كان من المعاييب التى لا ينساها الوطنيون لهذا العالم المؤرخ الجليل . . .

على أن نقد جرجى زيدان لسياسة مصطفى كامل كان نقداً لتطرفه فى آرائه ، لا نقداً لسلوكه فى خدمة بلاده ، فإن الزعيم كان من هذه الناحية نقي الصفحة ، عفيف النفس ، فلم يتجر بالوطنية ولم يجعلها سبباً لكسب مغانم ، بل على الضد من ذلك كانت تضحياته ومغامره معروفة واضحة للعيان ، وإلى هذه التضحيات الغالية يشير المرحوم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل بقوله : (لقد ضحى أذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية

فى سبل حياة الجهاد التى اختارها لنفسه ، ولم يتحول عنها طول حياته ، كما ضحى بمصالح أقرب الناس إليه ، وأعزهم عليه . ذلك أول مظهر للتضحية فى تاريخه ، وهناك التضحية الكبرى التى تتضاءل بجانبها كل تضحية ، وهى بذله حياته وشبابه فى سبيل مصر (١) .

وعلى الجملة فقد خفف من أثر انتقادات زيدان للزعيم مصطفى كامل حسن نيته وصدق لهجته من ناحية ، وبعده بعدا تاما عن المشاركة فى الأحزاب السياسية المصرية المناوئة لسياسة الحزب الوطنى من ناحية ثانية ، وإشاداته بعظمة مصطفى كامل وأحيائه للشعور الوطنى من ناحية ثالثة . وندع هنا جرجى زيدان يتحدث عن مقاييس العظمة وتطبيقها على مصطفى كامل قائلا : (وعندنا أن الرجل العظيم إنما يكون عظيما بما يخلفه من الإعجاب والأثر الحسن فى نفوس معاصريه . إذ قد يكون عظيما بنفسه ولا يوفق لاتمام عمله ، فيؤسس لمن يأتى بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده عظيمين ، لأن الأول من مؤسسى النهضة السياسية ، والثانى من مؤسسى النهضة الدينية الإصلاحية . وعلى هذا القياس أيضا نعد مصطفى كامل عظيما ، لأنه أحيأ فى الأمة المصرية جامعة الوطن ، وهو القائل : لو لم أكن مصريا

(١) مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية . ص ٤٢٢ .

لوددت أن أكون مصرياً • وعلم المصريين المجاهرة بطلب حقوقهم،
وأسمع دول أوربا أصواتهم • فهو من أكبر مؤسسي النهضة
السياسية المصرية ولم يأت جمال الدين الأفغاني عملاً لا يستطيع
مصطفى كامل مثله وأعظم منه لو بلغ إلى مثل سنه • ألم يوافق
أعظم دول الأرض حتى عرض نفسه للنفي أو الطرد ؟ وقد تقانى
في خدمة مبدئه حتى مات شهيداً في ريعان شبابه •

صلاته بالمستشرقين

قد يكون أول تاريخ اتصل فيه جرجي زيدان بواحد من رجال الاستشراق هو سنة ١٨٨١ حيث أدى زيدان امتحانا في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة تألّفت في بيروت ، وكان من أعضائها الدكتور كرنيلوس فانديك الذي توفي سنة ١٨٩٥ •

وقد يكون زيدان لم يتلمذ على هذا المستشرق الأمريكي في خلال السنة وبعض السنة التي قضاها طالبا في المدرسة الكلية الأمريكية ببيروت • ولكن الذي لا شك فيه أن زيدان أدى امتحانه في علوم الصيدلة أمام لجنة حرة بعد حادث « الاختلال المشهور » الذي حدث في المدرسة الكلية بسبب الخلاف على تدريس المواد باللغة العربية بدلا من الانجليزية • وكان فانديك واحدا من أعضاء

لجنة الامتحان التي كانت برئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشي
المعسكر .

و حين توفي فاندك نشر زيدان له ترجمة مطولة في مجلة
الهلال ، ولكن ليس في هذه الترجمة ما يدل على أن زيدان كان
على اتصال قريب بالرجل ، وان كان يذكره في الترجمة بقوله عنه
« أستاذنا » . وهو يذكر هذه الأستاذية في معرض الاشادة بفضل
فاندك حينما أوعز الى الدكتور يعقوب صروف محرر المقتطف أن
يترجم كتاب « سر النجاح » الى العربية لما فيه من نماذج للعظماء
الذين كونوا أنفسهم ، وشقوا طريقهم ، رغبة في الاقتداء بهم ،
والنسج على منوالهم .

ولا شك أن أبحاث زيدان ودراساته ومقالاته في الهلال كانت
سببا الى عقد الصلات بينه وبين المستشرقين الذين كانوا يقبلون على
قراءة مجلات ذلك العهد ، متابعة لسير النهضة العلمية في الشرق
العربي ، فعلى الرغم من استغراقهم في الكتب والمراجع والدراسات
المتخصصة التي كانوا عاكفين عليها ، فانهم كانوا يتابعون المجلات
الأدبية العلمية في ذلك العهد ، ومنها « المقتطف » ليعقوب صروف ،
و « المشرق » للأب لويس شيخو اليسوعي ، و « لغة العرب » للأب
أنستاس ماري الكرملني ، و « الزهور » لأنطون الجميل ، و « الهلال »
لجرجي زيدان .

و حين نشر زيدان فى مجلة الهلال عزمه على أنه بسيل تأليف كتاب فى تاريخ الحضارة الإسلامية او التمدن الإسلامى - وكان ذلك فى سنة ١٩٠١ - كتب اليه جماعة من أفاضل المستشرقين ، لم يذكر لنا أسماءهم ، يستكثرون هذا العمل الضخم ، أو - كما يقول زيدان نفسه بنص عبارته : (يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الحثين) (١) •

ولم يكن استكثار هذا العمل على زيدان تهوينا لأمر الرجل أو استصغارا لهمة ، ولكن الموضوع فى الحلق صعب المسالك ، وعمر الدروب ، متعدد المصادر ، مبشر المادة فى كتب ومخطوطات كثيرة متنوعة الموضوعات • فليس من السهل أن ينهض بذلك العبء الا الأشداء ، الذين تسعفهم ذهنيتهم ، وصبرهم ، ومثابرتهم ، ووقتهم ، وصحتهم ، وقرب المراجع من أيديهم على المضى فى العمل وانجازه

وقد خيب زيدان بعزيمته ومثابرتة ودأبه الدائم ظن هؤلاء المستغربين ، ولم تصده خشيتهم ومخاوفهم واستغرابهم عن الأقدام على التأليف وجمع المادة العلمية الضخمة لهذا الموضوع الضخم ، بل - على الضد من ذلك - حفزته الى العمل ، ودفعته الى (بذل جهد المستطاع فى مطالعة ما كتبه العرب فى الأدب والتاريخ

(١) تاريخ التمدن الإسلامى - مقدمة جرجى زيدان • ص ١٣ من الطبعة

الآخيرة •

والسياسة وسائر العلوم فيما وفقنا اليه من الكسب المطبوعة
والمخطوطة ..) •

وعلى الرغم من انقطاع زيدان الى البحث في صومعته بدار
الهلال ، أو في بيته بالفجالة فإنه كان يتلقى رسائل من المستشرقين
تأتيه بانتظام ، وتؤكد قيام التبادل العلمى بينه وبينهم ، كما كن
يستقبل من وقت لآخر أفرادا من هؤلاء المستشرقين الذين كانوا
يفدون الى مصر ، والى القاهرة بالذات ، لأغراض علمية أهمها
البحث عن مخطوطات مخبوءة فى مكتبات القاهرة العامة أو الخاصة،
أو لنشر المخطوطات التى كانوا يقومون بتحقيقها على مناهجهم ،
والتي فتحوا بها بابا جديدا للمحققين من العرب لينشروا التراث
العربى على أحدث الوسائل والمناهج المنظمة التى عنى بها هؤلاء
المستشرقون •

ويروى لنا المستشرق الروسى الكبير أغناطيوس كراتشكوفسكى
فى كتابه المفيد الممتع « مع المخطوطات العربية » الذى نشرته دار
التقدم بموسكو من عهد قريب ، كيف التقى بجرجى زيدان فى
القاهرة ، وكيف كان حنينه الى وطنه لبنان حين سمع كراتشكوفسكى
يتخاطب معه باللهجة السورية ، حتى أخذت الدموع تترقرق من
عينيه • وندع كراتشكوفسكى يروى لنا هذه الذكريات الجميلة
بعبارة التى ترجمت الى العربية ترجمة لا بأس بها • يقول الرجل:
(وهذا هو زيدان الكاتب الروائى ، والمؤرخ والصحفى ؛ كان فى

ذلك الوقت قد وصل الى أوج شهرته ، لكنه مع هذا كان لا ينسى أنه قد أغلق في وجهه طريق العودة الى وطنه . وكانت الدموع تفرق في عينيه عندما سمعنى أتحدث باللهجة السورية ، لهجة وطنه (١) .

وفي موضع آخر من كتاب كراتشكوفسكى المتع يصف لنا تعريجه في القاهرة على مكتبة أحمد تيمور باشا التي كان لا يعرفها غير المحبين للمكتب من أمثال جرجى زيدان الذى عرف عن طريقه هذه (٢) المكتبة .

ولعل الصلة الوثيقة بين كراتشكوفسكى وجرجى زيدان هي التي دفعت هذا المستشرق الفحل الى كتابة فصل عن زيدان في المادة الخاصة به في دائرة المعارف الاسلامية ، وهو فصل يلحظ فيه ذلك العمق ، وتلك الدقة ، وذلك التحرى الذى عرفه به كراتشكوفسكى في كل ما يتناوله من بحوث ودراسات .

ويقرر لنا الدكتور حسين مؤنس في المقدمة التي كتبها لتاريخ التمدن الاسلامى لجرجى زيدان في طبعته الأخيرة أن العلاقات اتصلت بين زيدان وبين طائفة من أعلام المستشرقين ، مثل نولدكه ، وفلهاوزن ، ومارجوليوث ، وجولدتسيهر ، وأمدروز ، وسخاو ،

(١) مع المخطوطات العربية - ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه . ٥٥ .

ووليام رايت ، وماكدونالد • ولا ندرى لماذا أغفل العلاقة بينه وبين كراشكوفسكى ؟

وإذا كان زيدان قد اتصل ببعض رجال الاستشراق المعاصرين له اتصال مراسلة ، أو لقاء شخصي ، فإن صلاته الفكرية بالمتوفين من المستشرقين تؤكد لها تلك المصادر الأوربية التي أخذ عنها ، واني كان يشير اليها دائما ويذكرها في مؤلفاته ، حتى في رواياته التاريخية •

ولقد كان المستشرقون الوافدون الى مصر يجعلون زيارة « مجلة الهلال » وزيارة صاحبها جرجى زيدان هدفا من أهدافهم ، ويضعونها في تخطيط برامجهم للرحلة • ولقد روت مجلة الهلال في عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من المجلة صدر عقب وفاة زيدان ، أن مستشرقاً جاءه مرة لزيارته لأول مرة ، فلما رآه سأله : أأنت زيدان ؟ قال : نعم ! فقال : ما أبعد صورة شخصك المرسومة في مخيلتي عن شخصك الحقيقي ! فاني كنت أنتظر أن أرى رجلاً شيخاً ، ذا لحية بيضاء ! لأن من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك بأقل من ثمانين عاماً !

وهكذا تؤكد مؤلفات زيدان الضخمة أنها كانت تقتضى من العمر ضعف الذي عاشه ذلك العالم الدعوب ، بشهادة المستشرقين اليب •••

نزعة شعبية غير أرسقراطية

يلاحظ الذين يقربون مؤلفات جرجى زيدان تلك الروح الشعبية الظاهرة فيها على الرغم من كونها دراسات متخصصة في موضوعات لا تهم الجماهير مثل ما تهم أهل الاختصاص . وتظهر هذه الروح الشعبية واضحة متميزة في رواياته التاريخية ، التي قصد من ورائها أن يوسع قاعدة القراءة بين الجماهير على أوسع نطاق . كما تظهر هذه النزعة الشعبية في مجلة الهلال التي أنشأها زيدان سنة ١٨٩٢ لعلها تكون شقيقة لمجلة المقتطف التي كان عليها طابع متخصص أعمق من طابع الهلال . ومن هنا جاءت شهادة الأدباء والقراء بأن الهلال كانت أخف المجلات العربية ظلاً . وخفة الظل هنا تأتي من ناحية الصبغة الشعبية التعليمية التي كانت تجعل مجلة المقتطف وقفاً على طبقة معينة من القراء هم طبقة المثقفين أصحاب

الثقافة الرصينة المتخصصة • أما الهلال فكانت مجلة سهلة التناول يقرؤها عدد أكبر من قراء غيرها ، وذلك لبساطتها وسهولة تناولها ، تلك البساطة التي كنت مزية الهلال من دون المجلات المعاصرة له جميعا ، والتي يقول عنها الدكتور محمد حسين هيكل : (وكانت ميزة الهلال في عهد منشئه البساطة في عرض المسائل الأدبية والاجتماعية والتاريخية بساطة تقربها الى الذهن ، أوتحيها الى النفس) (١)

ولم تفت هذه النزعة بعض الذين ترجموا لزيدان أو ألما بطرف من حياته ، فالمستشرق كراتشكوفسكى يذكر أن زيدان كان يكتب في كل عام رواية جديدة ، ويصدر مجلدا ذا صبغة تعليمية شعبية •

وقد حرص جرجى زيدان دائما على أن تكون كتبه وكتاباته في متناول فهم العامة ، وأن يرضى عنها الخاصة ؛ فهو يؤلف في تأليفه بين هدفين قد يكونان متباعدين • ومن هنا نزع الى الكتابة بأسلوب لا يعز فهمه ولا مناله على العامة من القراء • ويبدى زيدان دائما حرصه على هذه النزعة الشعبية في كتبه • ففي مقدمة كتابه « تاريخ مصر الحديث » يقرر أنه لم ير بين المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ المصرى من اعتنى بوضع تاريخ مستوف لمصر (على أسلوب قريب من فهم العامة ، ورضى الخاصة) •

(١) الكتاب الذهبى للهلال •

ولم يكن زيدان بحاجة الى أن يقرر في مقدمات كتبه أو في أى موضع منها أنه يهدف الى تعميم تناول العلم وتيسيره بين طبقات الناس • فإن تناوله للموضوعات وطرق معالجتها بهذه الوسيلة التي اتخذها يكشف لنا عن غرضه دون حاجة الى أن يعلن هو عن هدفه • وقد فطن الى هذا بعض ناقديه ومترجميه • فترى الدكتور محمد حسين هيكل في سنة ١٩١٢ وقبل وفاة زيدان بعامين يكتب مقالا في نقد كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » يكشف فيه عن هذه النزعة الشعبية لنشر المعرفة على أوسع نطاق عند جرجى زيدان ، فيقول : (كتب جرجى أفندى زيدان أكثر من خمسة وعشرين كتابا في التاريخ كما قدمناه ، ويظهر حين قراءتها ان غرض المؤلف منها نشر التاريخ وتعميمه ليعرف الناس الحوادث التي وقعت في الماضي ، ولتكون عندهم فكرة عامة عن العالم بأسره ، أو عن أمة بعينها • أريد أن أقول ان جرجى أفندى زيدان لا يقصد من مؤلفاته التاريخية الى تأييد فكرة له في طريق سير العالم ، كما يفعل بعض الفلاسفة من كتاب التاريخ ، ولكنه يريد نشر المعرفة ، وذلك ما يسميه الأفرنجى Vulgarisation (١)

ولا شك أن هذه النزعة التعليمية الشعبية في تعميم المعارف الأدبية والحضارية والتاريخية هي التي حدثت زيدان الى أن ينهج طريق التبسيط والوضوح في أسلوبه • فهو يكتب للناس بلغتهم

(١) في أوقات الفراغ • ص ٢١٦ •

التي يتبادلونها في صحافتهم ورسائلهم ، لا بتلك اللغة المتحذلقة المتأنقة التي قد يغلفها الغموض طارئاً كان أم مقصوداً •

ومن هذا المنطلق أخذ جرجي زيدان يصدر مؤلفاته ويهيئ بها أذهان القراء (على اختلاف طبقاتهم ، وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ - يعنى تاريخ الاسلام - بما تنشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعاً في « الهلال ») •

والذى يريد أن يتحدث عن النزعة التعليمية الشعبية عند جرجي زيدان لا يجد مفراً من الاستشهاد ، برواياته التاريخية ، فقد احتال بها على نشر التاريخ حتى يساغ مناله عن طريق القصة . ويعترف زيدان نفسه بهذا « الاحتيال » الذى لجأ اليه ليحقق هدفه التعليمى ، فيقول لنا فى مقدمة « تاريخ التمدن الاسلامى » ان (مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء ، وخصوصاً فى بلادنا ، والعلم عندنا لا يزال فى دور الطفولة ، فلا بد لنا من الاحتيال فى نشر العلم بيتنا بما يرغب الناس فى القراءة ، والرواية أفضل وسيلة لهذه الغاية) •

ومع هذه النزعة التعليمية الشعبية التى كانت هدف زيدان فيما يكتبه ، فان المعارف والمادة العلمية التى كان يقدمها فى مؤلفاته وكتابات له لم تبذل ولم تمتحن بهذا التيسير والتقريب ، بل ظل لها مقامها المحمود • فالتيسير والتقريب شئ ، والابتذال والامتهان شئ •

آخر • وقد ظلت مادة زيدان العلمية محترمة موقرة على الرغم من تداولها بين أيد كثيرة • وكذلك كان شأن صاحبنا في تحرير «الهلال» وتوجيه موضوعاته ، وجمع مآذته الطريفة ، فانه كان (ييسر المعارف ولا يبتذلها) كما قال عنه الأستاذ عباس محمود العقاد •

وحين رأى زيدان أن تقريب المادة العلمية الى الأفهام لا تساعد عليه اللغة الجافية ، ولا الألفاظ الغريبة ، ولا التفرع والتوعر في الأساليب ، فانه ارتضى لنفسه أسلوبا سهلا بسيطا ، وألفاظا مألوفة ميسرة متداولة ، لتعينه على تحقيق غرضه من شعبية العلم التي يريد بها • وقد آمن زيدان بهذه النزعة ، وظل مخلصا لها طول حياته •

ولقد كان زيدان نزاعا الى فتح المدارس في مصر التي اتخذها له وطنا ثانيا ، وكثيرا ما انتقد ضعف التعليم عندنا ، وقلة المدارس ، وتقاعد الحكومة والأغنياء عن اتخاذ خطوة فعالة في هذا السيل • وقد حز في نفسه — وهو في أثناء رحلته الى أوروبا سنة ١٩١٢ — أن يوازن بين حالة المدارس عندنا وعند القوم هناك • وقد أشعرته قراءاته ورحلاته ومعرفته المتجددة عن الغربيين أننا متخلفون عنهم في التعليم والمدارس • ومن هنا أراد بإنشاء «الهلال» أن يجعل منه مدرسة تتقف وتعلم ، لمن فاتهم في المدارس الثقيف والتعليم • فالهلال كان مدرسة واسعة الأبواب يدخل منها طلاب المادة العلمية الميسرة بلا عناء ، وهو تحقيق لفكرة «الشعبية» في العلم عند زيدان •

وهذه النزعة الشعبية عند زيدان يصفها الدكتور طه حسين بقوله : (وجرى زيدان لم يكن أرستقراطي الأدب ، وإنما كان رجلا يجمع بين نزعتين مختلفتين أشد الاختلاف ، ولكنهما نافعتان أشد النفع : احدهما النزعة العلمية التي تظهر فيما كتب من التاريخ الأدبي والسياسي ومن تاريخ الحضارة ، والثانية النزعة الشعبية التي تظهر في هذه الكتب التاريخية نفسها ، وتظهر بنوع خاص في قصصه وفصوله الثقافية العامة) (١) .

بقي أن نقول ان هذه النزعة الشعبية في كتابات زيدان ومؤلفاته كانت انعكاسا للظروف الأولى التي أحاطت بالرجل في نشأته وتعليمه الأول . فقد شاهد هو بنفسه وهو صبي طموح كيف تقف (المادة) في سبيل حصوله على كتاب يقرؤه ، وكابد هو بنفسه مشقات التعليم في مدارس متواضعة في بيروت ، ورأى هو بعينه كيف كانت الظروف في لبنان ومصر والشرق العربي تحول بين الجماهير وبين العلم الضروري لهم .

وحين قدم زيدان العلم لقرائه من العرب ميسرا مبسطا ، فإنه أعطاهم من سماحة نفسه ما يتلاءم مع نبل غرضه ، فلم يكن رجلا جافا ولا متعاليا ولا أرستقراطيا ، ولكنه كان دائما رجل الثقافة الجماهيرية المتواضع .

(١) من أعلام الفكر والأدب ص ٨٧ .

بقاؑة من الأءلاق

ءلنما رءى ءللل مطران صءلقة ءرءل زلءان بمراثلته
الرصلنة اللل ألقل فل ءفل ءأبلنه ؁ رسل له صورة شعرللة صاءقة
لأءلاقه ؁ ءأنما أراد أن يصنع لهءه الباقلة الءرلمة من الأءلاق
لولة زاهللة من أصدق الشعر الوصفل وأعءبه • وفل هءه اللولة
نلمع مءموعة من أءلاق زلءان ءلاها ءللل مطران فل أبهل
معارضها • ولا بأس هنا من الراء أبلات هءه اللولة فهل أكثر
ملاءمة للءكر فل هءا المكان • لقول ءللل مطران :

ألا فل سلل الله ءمءءك اللل

ءلاها « هلال ؁ مالىء الءون مقمر

وءء به رضى الصءاب فما ءبا

الى أن ءهاه ءءءك المءشر

وآداب نفس لو توزع حسنها
عراء لأضحى وهو كالروض مزهر
وأخلاق احسان وعفو ورقة

روائع يخفيها اتضاع وتظهر

وقبل هذه اللوحة الملمومة فى مكان واحد من قصيدة خليل
مطران ، نرى فى منتصف المراثية لوحة أو لمحة أخرى فى وصف
أخلاق زيدان يقول فيها مطران :

وكان أبر الناس بالأهل والحمى
وبالقوم لا يجفوا ولا يتغير
ونعم الأخ الوافى اذا ما تكرت
لصاحبه الأيام لا يتكر

وفى هاتين اللوحتين المطرانتين جماع من الأخلاق التى عرفت
عن جرجى زيدان ، واشتهر بها بين الناس فى عصره . على أن
خليل مطران لم يحط بأخلاق صاحبنا من جميع أطرافها ، ولم يذكر
له ألا ما بدا له منه من خبرة وقرب . فان هناك أخلاقا أخرى تضاف
الى لوحة خليل مطران فتكمل الصورة العامة التى نريد أن نرسمها
فى هذا الفصل .

ولكن لوحة مطران الشعرية فى وصف أخلاق جرجى زيدان
لم تشهد لها مثيلا فى بقية المراثى الشعرية التى نظمها أحمد شوقي ،

وحافظ ابراهيم ، وولى الدين يكن ، وحفنى ناصف • فهى لوحة متكاملة على حين لم تنصب اهتمامات شوقى فى مريته الا على دولة اليان ، والهلال ، وتاريخ الاسلام ، وروايات زيدان التاريخية ، كما أن مريته ولى الدين تناولت مآثر الرجل فى ميدان العلم والأدب والتاريخ والرواية ولم تتعرض لناحية واحدة من أخلاقه • أما حافظ ابراهيم فقد جعل بين الفجعية فى الشيخ ابراهيم اليازجى وجرجى زيدان مجالا للاعتذار من عدم مشاركته فى رثاء اليازجى يوم وفاته سنة ١٩٠٨ ؛ فجدد الحزن عليه فى وفاة زيدان سنة ١٩١٤ !

وتبدو لنا أخلاق زيدان من خلال مرأتين : مرآة الدين كتبوا عنه وعاشوه وعرفوه ووصفوه عن تجربة قريبة ، ومرآة سلوكه هو وتصرفاته القولية وردوده التى كانت تتم على أخلاقه بصورة واضحة •

لقد كان زيدان كثير الأنصاف للناس عامة ، وأهل الفضل خاصة • وقد سرت فى أيامه موجة من التهوين من أعمال المستشرقين والتصغير من شأنهم ومن الدور الذى يقومون به لخدمة الشرق وتاريخ العرب وحضارتهم وآدابهم • وقد يكون عند المستشرقين نوع من التعصب أو الغمز على العرب والاسلام ، ولكن مناهجهم فى خدمة الفكر العربى ، والتراث العربى ، وتنظيم الأبحاث الخاصة بالعرب والاسلام لا ينكرها منصف • وحين أحس جرجى زيدان من الأستاذ الشيخ أحمد الأسكندرى أنه يقلل من شأن

المستشرقين رد عليه زيدان يؤكد أنهم أصحاب الفضل الأول على الآداب العربية في العصر الحديث (لأنهم أول من وجه الأنظار الى الاهتمام بها ، وقد حفظوا آثارها في خزائهم ، أو نشروها في مطابعهم ، قبل أن تظهر المطابع في الشرق .. وهم قدوتنا في البحث والتنقيب . وهذا لا يمنع أنهم يخطئون مثل سائر البشر ..) (١)

وكان زيدان يحترم المحدثين من رجال الأدب والعلم ، ويرى أن التقدير لهؤلاء المحدثين لا يجوز بحال أن يقل عن التقدير للقدماء . والعبرة هنا بصواب الحكم ، لا بتقديم العهد وحداته . وهذه ناحية من الأنصاف تضاف الى سابقتها .

ولقد لقي زيدان ولقى « هلاله » ولقيت مؤلفاته ودراساته من النجاح والقبول ما لم يحظ به إلا قلة قليلة من الناس في عصره ، ولكنه مع هذا ظل متواضعا بعيدا عن الزهو والتفاخر ، وتوهم أنه صنع شيئا لم يصنعه غيره . وحين اضطر في أحد ردوده على ناقديه الى ذكر الطبقات التي حظيت بها بعض كتبه واللغات التي ترجمت اليها أشار الى أنه كان مكرها على ذلك (فاتنا من أبعد الناس عن التتويه بأعمالنا) (٢) .

وقد جمع صاحب « مرآة العصر » مجموعة من أخلاق جرجي زيدان في سطرين اثنين يقول فيهما : (أما أخلاق صاحب الترجمة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية . ج ٣ ص ٧

(٢) المصدر نفسه ص ٦ .

فسلامة الذوق ، وصدق اللهجة ، وهو مشهور بدمائة الأخلاق ،
ولطف المحاضرة ، معروف بالثبات والمواظبة على العمل (١) •

والثبات والصبر على العمل من أهم ما يلفت النظر في أخلاق
زيدان ، وهل كانت مجلة الهلال ، وكتبه العظيمة في الأدب العربي
والتمدن الإسلامي ألا ثمرة من ثمار الصبر والمواظبة على العمل بلا
توقف أو ملل ؟ وهل كان النجاح الذي لقيه زيدان بعد الظروف
العصيبة التي مرت به في طفولته وشبابه إلا نتيجة حتمية لهذا الصبر
الطويل على الأعمال ؟ وبلغ من حرص زيدان على العمل وعدم
تضييع لحظة من الوقت سدى أنه كان يتشاغل في خلال مطالعته وهو
شاب مقبل على الحياة بالرسم والتصوير على بعض صفحات ما يقرأه •
فلم يرض أن يضيع ساعة الراحة من تعب المطالعة بلا عمل
ينجزه (٢) •

والعمل الدائم بلا ضجر ولا ملل هو نتيجة لذلك الصبر
الجميل الذي تذرعه به منذ أن واجه شظف العيش ومشقات
الحياة وهو صبي (فلم يكن أمامه في ظلام الحياة ، ومحاربة الأيام
غير الصبر والأمل •••) (٣) •

وقد شهد له المستشرق كراتشكوفسكى بأنه « كان ذا خلق

(١) مرآة العصر • ص ٤٦٤ •

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥٨ •

(٣) عصاميون عظماء من الشرق والغرب • ص ٦٥ •

نبيل رفيع ، • وقد تكون شهادة كراتشكوفسكى له مستنبطة من موقف زيدان الهادىء الرزين العفيف من حساده وناقديه ، فقد كانت ردوده عليهم وعلى مهاجمتهم - وأحيانا مهاتراتهم - متسمة بالأدب وسعة الصدر وعفة اللسان والحلم الجميل • ولكن كراتشكوفسكى اتصل بالرجل عن قرب ، ودامت المراسلات بينهما زمنا طويلا ، وكان زيدان أحد الأدلاء الأوفياء الذين صحبوا كراتشكوفسكى فى خلال زيارته للقاهرة •

وعلى كثرة ما قرأ جرجى زيدان من الكتب الأجنبية فى وقته فى مسائل الفلسفة والأديان فإنه ظل محافظا على روح الدين والاعتصام بالدين ، ومجانبة الآراء المتطرفة التى كان يجاهر بها واحد من المفكرين المسيحيين العرب مثل الدكتور شبلى شميل ، كإنكار الحكمة من العالم المادى ، والشك فى وجود حياة أخرى بعد أن تتخلص الروح من الجسد بالموت • ولعل مناقشة دارت فى مجلة الهلال فى سنتها السابعة عشرة تكشف لنا عن تدين هذا الرجل وبعده عن القضايا الشائكة التى لا يرجع الباحث فيها باطمئنان ولا عرفان • فقد وجه أحد القراء فى مجلة الهلال سؤالا الى جرجى زيدان يقول فيه : هل فى الوجود عالم آخر ؟ فرد عليه زيدان ردا علميا مقنعا ختمه بقوله : (فوجود العالم الآخر لا ينافى نظام هذا العالم - يعنى عالمنا المادى الذى نعيش فيه - بل هو متمم له كما تقدم) • فما كان من الدكتور شبلى شميل الا أن تدخل فى

الموضوع فأنكر الحكمة فى العالم المادى بحجة وجود زوائد فيه خالية من المعنى والغرض ، كالبرغش الذى أرقه وكالأعضاء الأثرية فى الحيوانات التى لم يكن لها معنى، لولا انها كانت من قبل ذات نفع، ولكنها ضمرت بالأهمال وعدم الاستعمال . وقد نظم شميل فى «البرغش» الذى أرقه أبياتا ينكر فيها الحكمة فى وجود هذا المخلوق الحقير المزعج، وقد انتشرت الأبيات - على الرغم مما فيها من التطرف فى الاعتقاد - وتداولها الرواة فى ذلك الزمان !

ولعل أخلاق زيدان مع أصحابه ، من الوفاء لهم ، وكثرة تحمله لما قد يبدو من هفوات فيهم ، والانة الجانب لهم هو الذى أراد أن يسجله « سليم مركيس » من كلمته فى تأييد جرجى زيدان، فقد ذكر البيت الذى غناه « مخارق » لهرون الرشيد ، وهو :

وأنى لمحتاج الى ظل صاحب

يرق ويصفو ان كدرت عليه

فقال الرشيد لطربه ومنشده : يا مخارق ! جئنى بهذا الصاحب ولك نصف الخلافة ! وبالطبع لم يجه مخارق بمثل هذا الصاحب النادر ندرة الكبريت الأحمر فضاعت منه العطية التى وعد بها الرشيد ؛ ولكن سليم مركيس كان ضامنا أنه لو كان معاصرا للرشيد لكان ضامنا لنصف الخلافة اذ يقدم اليه جرجى زيدان ، لأنه كان ضالة أمير المؤمنين ...! (١) .

(١) الكتاب الذهبى . ومجلة الهلال . عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ .

وقد أكمل لنا خليل مطران الصورة الشعرية لأخلاق جرجي زيدان في مرثيته الرائية له ، بصورة أخرى ثرية بليغة على إيجازها ، يصف فيها جمع الرجل بين التواضع والكبر ، وهو كبر يبلغ أقصى غاية المحامد والفضائل ، لأنه كبر وترفع عما في أيدي الناس ، وكبر واستعلاء عن أن يرخص كرامته وينذل رجولته بالشكوى لأنسان . وترك خليل مطران لعبارة التي يقول فيها عن زيدان : (لم أشهد ولم أسمع عنه أنه شكا دنياه بمحضر من أحد ، ولا أنه تمنى على أحد شيئا بأشارة أو مصارحة . كما أنني لم أجده مرة مستفزا للأخذ بثأره من متهجم عليه في الصناعة التي هي مدار رزقه ، ومحور شهرته ، لاعتقاده شرف غايته) .

زيدان الأب

ان علاقة جرجى زيدان الطيبة مع كل من اتصل بهم واتصلوا به تؤكد لنا جوانب خلقية كريمة من هذا الرجل الذى لا نذكر أننا عثرنا له على كلمة جارحة ، أو عبارة نابية مع أشد ناقديه والمتهجمين عليه فى معارك النقد الطويلة التى واجهها بشجاعة وسماحة نفس ، وسعة صدر الى ما قبل وفاته بقليل .

واذا كان زيدان فى أخلاقه وصلاته مع الأصدقاء مثال الصديق المخلص ، والأنسان المتسامح الذى كان يفتش عنه الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ووهب نصف ملكه لمن يجده حين سمع قول المنشد :

وأنى لمحتاج الى ظل صاحب

يرق ويصفو ان كدرت عليه !

إذا كان زيدان هكذا مع أصحابه ومع الأجانب ، فإنه أولى أن يكون مع أبنائه مثال الأب الرحيم الكريم الذي تتجلى الأبوة الحانية في سلوكه مع أبنائه ، وفي مخاطبتهم وفي مراسلاته اليهم حين تفرق الأيام بينهم قليلا أو كثيرا •

وجرجى زيدان واحد من الآباء في الأدب العربي الذين بعثوا الى أبنائهم برسائل تفيض بالحب والنصح والتوجيه حين قضت ظروف معينة أن تبعد الأبناء عن الآباء ، كظروف الاشتغال بالعلم ، والاضطرار الى مفارقة الأهل •

ولم يخل الأدب العربي في تاريخه الطويل قديما وحديثا من أمثال هذه الرسائل الأبوية التي حفظها لنا التاريخ، وروتها كتب الأخبار والأدب والسير وما أليها ، كرسائل الخليفة عمر بن الخطاب الى ابنه عبد الله الذي خرج في غربة قصيرة، ورسائل المهلب بن أبي صفرة الى أبنائه ينصحهم ويوصيهم ، ورسائل عبد الملك بن صالح ابن علي العباسي الى ولده • ورسائل موسى بن سعيد المغربي الى ولده علي صاحب كتاب « المغرب في حلى المغرب » ينصحه بالسلوك في الغربة ، وقد اشتملت رسائل ابن سعيد هذا على القصيدة الكافية المشهورة التي يقول فيها الأب مخاطبا ابنه :

أودعك الرحمن في غربتك

مرتقيا رحماه في أوبتك

وما اختياري كان طوع النسوى
لكتنى أجرى على بغيتك
فلا تطل حبل النوى اتنى
والله أشتاق الى طلعتك
واختصر التوديع أخذا فما
لى ناظر يقوى على فرقتك
واجعل وصاتى نصب عين ، ولا
تبرح مدى الأيام من فكرتك

على أن الأدب الحديث والمعاصر قد حفل بطائفة من الرسائل
بعثها بعض الآباء الى أبنائهم النازحين فى طلب العلم ، يدبرون لهم
بالنصح طرق السلوك فى مغربهم ، ويرسمون لهم على البعد خطط
التكيف مع وسطهم الجديد . ومن هذه الرسائل ما كتبه أحمد حافظ
عوض الى ولده « جلال » فى كتاب عنوانه « من والد الى ولده » ،
وما كتبه المرحوم أحمد أمين الى ولده ، وقد نشرت فى كتاب عنوانه
« الى ولدى » ، وما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل الى ولده ،
وما كتبه خليل السكاكيني الأديب الفلسطينى الأوسان الى ولده
« سري » ، وما بعث به أسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور الى
ولده جلال ، وما بعث به بولس سلامة الباحث الشاعر اللبناى الى
حفيدة فادى ، وما أرسله فاضل الجمالى السياسى العراقى المعروف
الى ولده عباس ، وما بعث به شكرى شعشاعة الأديب الأردنى الى

ولده نزار الذي كان يطلب العلم في انولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٢ ، وما أرسله الأستاذ يعقوب العودات « البدوي الملم » الأديب الباحث الأردني الى ولده خالد حين بعث به الى بيروت سنة ١٩٦٨ يطلب العلم في الجامعة الأمريكية ، وقد نشرت نماذج من هذه الرسائل الأبوية في مجلة « الأديب » .

ومن حسن الحظ أن جرجي زيدان قد انضم الى هذا السلك الكريم من الآباء الذين بعثوا برسائل الى أبنائهم . ففي سنة ١٩٠٨ أرسل الرجل ولده « اميل » الى بيروت ليتعلم في الجامعة الأمريكية ، وكان الاتفاق أن يبعث الابن الى أبيه كل أسبوع رسالتين حتى يطمئن قلب الأسرة على ولدها ، ويظهر أن الابن استكثر أن يكتب الى أبيه مرتين كل أسبوع ، وقد تكون مشاغل الدرس والتحصيل قد عاقته من أن يجرى في تنظيم مواعيد الرسائل على رغبة أبيه ، فبعث اليه أبوه برسالة تفيض بالحب ، وتمتلئ بالنصائح والتوجيهات التي لم يجد الأب بدا من توجيهها الى ابن له حديث عهد بالغربة والبعد عن أحضان الأسرة ، يستقبل أصدقاء وزملاء جددا ، ويستقبل حياة جامعية جديدة لم يكن له بها عهد من قبل . وقد حرص الوالد في رسالته على أن تكون العلاقة بينه وبين ولده علاقة صديق يفضى الى صديقه بذات نفسه ، ودخيلة أمره ، لا علاقة ابن يخشى أباه ويهاب أن يروح له ببعض خصوصيات أمره . كما حرص أن يوصيه بسعة صدره للحياة ، فلا يضيق صدرا بما قد

يصادفه من أمور لم يألّفها في ذلك الجو الجديد ، وأرشدته الى أن التكيف بالوسط دليل على حيوية الإنسان ومرونته وعقله ، وكأنه كان بهذا يشير - مسبقا - الى قول شوقي بعد ذلك ببضعة عشر عاما في رثاء مصطفى لطفى المنفلوطي :

من ضاق بالدنيا فليس حكيما

ان الحكيم بها رحيب الباع

وتلمح في رسائل زيدان الى ولده أنه يحاول أن يعوض أبناءه ما فاتته هو شخصا من النصيح والتوجيه في شبابه ، فلقد أتاحت لولده « أميل » من فرص المعاونة والتشجيع والتوجيه ومياسرة الحياة لا معاسرتها ما لم يتح للأب الذي عرفنا طرفا من مكابذاته في الحياة في مطعم أبيه • ويظهر أن هذه المكابذات والحياة القاسية الشديدة التي عاشها جرجي زيدان أيام طفولته وصباه وفتائه في بيروت لم تبرح ذاكرته ، فهو لا يزال يذكرها جيدا ، وهو لا يزال يشير اليها في كياسة الى أبنائه حتى يتخذ لهم منها سببا الى العمل وعدم الكسل في ظل مياسرات الحياة التي هيئت لهم بعد كفاح والدهم الطويل • .

وكثيرا ما كان يسمع أبناء جرجي زيدان الثناء على والدهم ، والأشادة بذكوره في مجالسهم مع أصدقائهم وزملائهم ، وكان الأبناء - بالطبع - يسرون لهذا المديح الذي يسمعون به بأذانهم في والدهم ، وقد سمع ولده « أميل » شيئا من هذا في مجلس له في بيروت فبعث

الى والده يخبره بما سمعه من ثناء عليه • وبالطبع لم يسكت الاب
على هذا الخبر السار يسوقه له ولده ، ولكنه يرد عليه بما يؤكد له
أنه لم يستحق مثل هذا المدح الا بعد أن أضناه العمل والتعب
والكفاح ؛ فأن الثناء لا يأتى للناس ألا بعد أن يبذلوا له ما يليق به
من الأثمان •

ولعل رسالة واحدة فى هذا المقام نعرضها هنا تصور لنا فنا
كاملا من أدب الرسائل الأبوية عند جرجى زيدان ، وتعرض لنا
نفسية الرجل وعلاقته بأبنائه • ولن نجد أصدق من رسالة زيدان
الى ابنه « أميل » حين كان يتلقى العلم فى جامعة بيروت الأمريكية
سنة ١٩٠٨ • قال الأب المثالى فى رسالته : (... كتبت اليك أول
أمس ، وأثبت لك ما كان لكتابك الأول من التأثير فى • وقد كنت
أنتظر ذلك ، قياسا على ما شعرت به أنا من الوحشة حين فارقت أهلى
منذ خمسة وعشرين عاما • وأرجو أن يأتينى كتابك الثانى وفيه
ما يطمئن القلب • وهذا عهدى بك ، وأنت عاقل ، أن توفق بين
نفسك وبين ما يحيط بك من الأحوال • فلا تطلب أن تتغير تلك
الأحوال حتى توافق مرادك ، فاذا لم يتم لك ذلك شقيت • • ذلك
هو الفرق بين واسع الصدر وضيقى الحلق • فواسع الصدر يطبق
نفسه وأحواله على البيئة والظروف التى تحيط به ، وهذا يدل على
عقل كبير • وأما الذى ينتقد كل ما يحيط به ، فلا يعجبه شىء من
الأمور التى تتعلق به ، ولا يعجبه ما يقول الناس عنه ، ولا ما يريدونه
منه ، ولا يعجبه معاملة الناس له الا كما يريد ، فهذا أتعس شقى •

... لا تزال - على ما يظهر - تستعظم الكتابة الى مرتين في الأسبوع ، وأنا لو وجدت كل يوم بريدا لكتبت كل يوم ؛ فافعل أنت كذلك ، وأطل كتبك ما استطعت ، واطرح لي ما تراه أو ما يخطر لك ، من أى وجه ، وفي كل حال • واعلم أنك تكتب الى صديق يحبك ، ويفار على مصلحتك ، لا الى والد يلتبس أن تبايه وتخفى عنه شيئا من أمورك • ولا أظنك تجهل أنى منذ ستين أو أكثر صرت أعاملك معاملة الصديق لصديقه ... وفي سنك كنت جانا ، ولكنى لم أكن أجد من يشجعنى ، ولا من يشير على ، أو ينبهنى الى نقص فى • ولو وجد فوق رأسى - وأنا فى مثل عمرك - من ينبهنى الى نقائصى ، لو فرت على نفسى تعب سنين ، وتعبت النجاح أعواما • فاستفد أنت من هذه الفرصة •

ان العمل فى هذه الدنيا يحتاج الى جرأة وقدام ، كما يحتاج الى الثبات والصبر ، وكما يحتاج الى التعقل والصدق •

... لا ينبغي أن يطول الوقت قبل أن تتعود المدرسة ، وأكلها ، وتلامذتها ؛ فان الرجل الحقيقى قوى الإرادة من يطبق نفسه على الوسط الذى يوجد فيه • ان ذلك دليل على القسوة والحوية فى الإنسان ، وأشبه شئ بالمرونة فى الجماد *Elasticity* فالمرونة فى الأجسام الحية تقوى فى الشبان ومن فى معانهم من الأقوياء • وأريد بالمرونة مرونة البدن والعقل • فالشاب اذا قرصته فى عضده مثلا ، فحالما تترك العضد يعود اللحم الى ما كان عليه ، وأما الشيخ

فاذا قرصته يطول زمن عوده الى أصله • واللحم الميت لا يعود اذ لا مرونة فيه • واعتبر ذلك فى العقول ؛ فصاحب العقل الكبير يهون عليه تطبيق تصوراته وأحكامه على جلسيه أو عشيده ، ولو كان فى الحقيقة بعيدا عن طبعه أو عاداته • وهذا هو الفرق بين اناس فى ارضاء الناس أو عدم ارضائهم • فالذين يرضونهم هم أصحاب المرونة العقلية ، الذين يستطيعون تكيف تصوراتهم وأحكامهم ، حتى يفهموا جلسيهم ويفهموه ، وهو ما يعبر عنه بقولهم Commonsense فكن أنت كذلك تكسب ثناء القوم وقلوب عشرائك • وكن - مع ذلك - محافظا على مبادئك ، فإن المرونة حسنة وممدوحة فى التصورات والأحكام ، ولكنها مكروهة وسيئة فى الآداب والأخلاق ، فهذه لا بد من المحافظة عليها ، والثبوت فيها ثبوت الجمال •

يسرنى سرورك لسماع اسم والدك فى معرض المدح ، وهذا طبعى ••• ونحن يا حبيى لم نستحق مثل هذه الكلمة تقال على هذه الصورة ، الا بعد أن أذبنا الدماغ ، وأنهكنا القوى ، فى السهر والاجهاد • لأن العصر الذى نشأنا فيه غير الذى أنت فيه • فانه أسهل عليك كثيرا أن تقال مثل هذا المقام وأرفع منه ، بتعب أقل ووقت أقصر •••

وأما أقصى مرادى ومتمناى فهو أن تبقى متمتعا بالصحة والعافية ، وأن يكون اسمك مصونا ، وسمعتك شريفة ، وأن تكون

قريباً من قلوب الناس بحسن أخلاق) (١) • ولقد استجاب الابن « أميل زيدان » الى نصائح أبيه ، وفتح لها سمعه وقلبه • ويحدثنا هذا الابن عن أبيه عقب وفاته سنة ١٩١٤ قائلا : (لم أستحي قط أن أفتح له صدري في ساعة الضيق ، وأشكو له متاعبي) (٢) • وهذا الانفتاح من جانب الابن هو نتيجة لمناسبة الأب لابنه أن تكون العلاقة بينهما علاقة صديق يفضى ، لا علاقة ابن يخشى ويكتم ...

واذا كان الأب جرجى زيدان يعامل ابنه معاملة الصديق ويشجعه على ذلك ، فإنه في الوقت نفسه كان يعامله معاملة الرجال ، وهي نتيجة حتمية لمعاملة الصداقة • ومعنى هذا أنه كان يربى فيه الاعتماد على النفس ، والشعور بالذات ، لا تربية والد يريد أن يجعل من ولده دائماً طفلاً يعتمد عليه • وكما كان جرجى زيدان حسن الأصغاء ، حسن التقبل لحديث الناس وآرائهم - ولو كانت ضده وفي غير مصلحته - فإنه كان كذلك حسن الأصغاء لحديث أولاده ، حتى ولو لم يكن فيه من المعنى كثير أو قليل • وكان غرضه من ذلك أن يشعرهم بكيانهم وشخصياتهم ، ويزيد

(١) عن مجلة الهلال سنة ١٩٣٥ • ومختارات دار الهلال سنة ١٩٤٦

ص ١٣٢ •

(٢) الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ •

تقتهم بأنفسهم ، حتى تنمو شخصياتهم متكاملة على سواء • وبلغ من
معاملة صاحبنا لأبنائه معاملة الرجال انه كان يناقشهم مناقشة الند ،
ويباحثهم مباحثة النظير ؛ فلا يفرض عليهم رأيا أو حكما ، ولا
يستعلى عليهم بالنصح وابداء الأوامر والنواهي التي كثيرا ما تذهب
هباء ، ويكتفى من ذلك كله بالمثال الطيب الذي يجده الأبناء في
أبيهم •

ولقد ترك لنا اميل زيدان صورة جميلة من جرجي زيدان
الأب ، نشرت في أعقاب وفاته بقليل ، ولا بأس أن نورد هنا شيئا
منها تكتمل به الصورة العامة ، والملامح التي أردنا أن نثبتها لجرجي
زيدان الأب ، فلم نجد أقدر على ابرازها من الابن الذي لا نجد
مثله في الصدق والمعرفة والتجربة التي لمسها عن قرب من أبيه •
يقول الابن من مقال عنوانه « الفقيد أبا » في عدد نوفمبر من الهلال
سنة ١٩١٤ : قيل : كل فتاة بأبيها معجبة • فأنا لا أنكر اعجابي
بوالدي رحمه الله • ولكن ذلك الأعجاب ليس صادرا فقط عما
يربطني به من العواطف النبوية ، بل هو اعجاب رجل عرف الفقيد
حق المعرفة ، ودرس أخلاقه أدق درس • يعرف الناس الفقيد كاتبا
ومؤرخا وروائيا ، لكنه كان قبل ذلك أبا بتمام معنى الكلمة •
وقليلون هم الآباء الذين يستحقون هذا الاسم • لا تنتظر مني أيها
القارئ أن أسرد عليك نعوتا مبتذلة وصفا لأبوة الفقيد • فلست
بقائل مثلا : انه كان محبا خونا شفوفا مضجيا بنفسه ، ونحو ذلك
من الصفات التي لعلك قرأتها من العنوان وحده • كلا ! فاني أغنيك

عن سماع المبتذل بذكر بعض أطواره ، ولعلها أبلغ من كل ما يقال
في هذا المعنى •

كلما فكرت في أخلاق والدي - رحمه الله - تمثلت سعة
صدره قبل سائر صفاته ، فقد كان صبوراً لا يفوته شيء
من واجباته صغيراً كان أو كبيراً • وطالما سمعته يردد القول المعروف
أعقل الناس أعذرهم للناس • وكانت تربيته لأولاده تربية استقلالية
فاني ما زلت منذ الثانية عشرة أشعر أنه يعاملني معاملة الرجال ،
فكان لي صديقاً وأباً في آن واحد • لم أستحي قط أن أفتح له
صدرى في ساعة الضيق ، وأشكو له متاعبى • وكان يصغى لأولاده
بكل لذة ، ويظهر الاهتمام لآرائهم ، وإن كان ما يقولونه خالياً من
المعنى أحياناً ، ولكن ذلك يزيد ثقتهم بأنفسهم • وقلما اعترضهم
في سلوكهم ومعتقداتهم وآرائهم • وكان يباحثهم كأنهم زملاء له ،
ويناقشهم في سلوكهم ، ويظهر لهم الطريق الصحيح • ولا أذكر
أنه لجأ مرة إلى الكلام الحشن ... وكان يقلل من النصائح
والأرشادات ، مفضلاً أن يجعل سلوكه الشخصي مثلاً لأولاده ،
ونعم المثال •

نهاية الحياة ودموع الوفاء

من عجيب ما لاحظناه في أخطاء الوفيات في عصرنا الحديث هذا الخطأ الذي دار في المراجع والمصادر حول تاريخ وفاة جرجي زيدان •

ففي الترجمة المنشورة في آخر الجزء الرابع من « تاريخ آداب اللغة العربية » يقول كاتب السيرة - ولم يذكر لنا من هو - ان زيدان توفي في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ • ولا شك أن أبناء الفقيه قد اطلعوا على هذه الترجمة ، وعلى هذا التاريخ وأقروه ، أو لم يعترضوا عليه ، بدليل نشره في الطبقات التالية من الكتاب حتى الطبعة الأخيرة التي ظهرت سنة ١٩٥٨ •

وفي النعي الذي نشرته مجلة المقتطف في عدد شهر أغسطس

سنة ١٩١٤ بقلم الدكتور يعقوب صروف (أن صاحب الهلال توفاه
الله بغتة في يوم الثلاثاء مساء ، في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤) •

وفي مادة « زيدان » من دائرة المعارف الإسلامية ، وهي المادة
التي حررها المستشرق كراتشكوفسكى جاء أن الرجل (توفى
بالقاهرة في ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤) فبعد شهرا كاملا من تاريخ
الوفاة في المصدرين السابقين •

وفي « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة أن زيدان (توفى
فجأة بالقاهرة في ٢١ أيلول – أى سبتمبر – سنة ١٩١٤) • وبهذا
بعد تاريخ وفاته شهرين كاملين !••

وقد تابع شارحو ديوان محمد حافظ ابراهيم ومحققوه في
طبعة دار الكتب المصرية التي أصدرتها وزارة المعارف يومئذ – تابعوا
القول أو التاريخ الذي أخذ به المستشرق كراتشكوفسكى ونشره
في دائرة المعارف الإسلامية •

والذي اتضح لنا بعد التحقيق والمراجعة لصحافة ذلك العهد
ومجلاته الأدبية أن كراتشكوفسكى قد جاءه الخطأ في التاريخ مما
نقله عن مجلة الهلال عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ، وهو أول عدد من
الهلال يصدر بعد وفاة صاحبه، وقد نشر النعي فيه مطولا مفصلا (١)،

(١) الحق ان هذا النعي كان سيرة مفصلة لحياة جرجى زيدان ، وهي
من المصادر الجيدة .

ولكن حدث خطأ مطبعي في شهر وفاة زيدان ، لم يفتن اليه كاتب النعي ، ولا إدارة الهلال ذاتها ، ولا أحد من أبناء الفقيده وأسرته . وظل هذا التاريخ مرجع المترجمين لسيرة زيدان وعلى رأسهم المستشرق كراتشكوفسكى ، فلم يفتن اليه ، ودونه في دائرة المعارف ، وأخذ شارحو ديوان حافظ ابراهيم - وهم الأساتذة أحمد أمين ، وأحمد الزين ، و ابراهيم الأبيارى - فذكروا هذا التاريخ بدون تحقيق ولا تصحيح .

وعلى الرغم من أن تاريخ وفاة زيدان الذى نشر فى آخر أجزاء « تاريخ آداب اللغة العربية » - وهو ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ - هو أقرب التواريخ مظنة للصحة ، فاننا لا نميل اليه ، فقد يكون خطأ مطبعيا صارخا كالذى صدر فى عدد اكتوبر من الهلال سنة ١٩١٤ وهو التاريخ الذى خدع المستشرق كراتشكوفسكى فأوقعه فى وهم كبير . ونميل الى التاريخ الذى ذكره الدكتور صروف فى مقتطف أغسطس سنة ١٩١٤ ، وهو يوم الثلاثاء مساء ، فى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ .

ولعل السر فى فرق يوم واحد بين التاريخ الذى ذكره صروف ، والتاريخ الذى جاء فى سيرة زيدان بآخر الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية ، يكمن فى أن أهل زيدان شكوا ساعة الوفاة فى وفاة الرجل ، فقد كانت دلائل الصحة بادية عليه قيل وفاته بلحظات ، وقد مات بين كتبه وأوراقه ، وكانت ملامح

الموت لا تبدو على وجهه ، فحسبها الأهل اغفاعة أو اغماعة • ويؤكد لنا هذا ما جاء في الترجمة المطولة لحياة زيدان التي نشرت في جزء أكتوبر من الهلال سنة ١٩١٤ ، فقد جاء فيها : (وبعد أن أقيمت صلاة الجنازة في الكنيسة لحظ أهله أن هيئة الموت لم تبد على وجه الفقيد ، بل صارت علامات الحياة أظهر فيه مما كانت في الصباح ، ففحصه الأطباء فقالوا : ان كل الدلائل تدل على حدوث الموت •• لكن أهله ظلوا مرتابين ، فعدلوا عن دفنه ، وأقروا على إبقائه إلى الصباح • ولما كان الصباح خاب أملهم الضعيف ، فدفنوا فقيدهم وهم يتمنون لو يقدونه بأرواحهم) •

من هنا جاء الخلاف في يوم واحد بين ٢١ يوليو ، ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ • أما الخلاف في شهر وشهرين فهو من الأوهام التي نرجو أن يصححها هذا التحقيق •

ولم يكن جرجي زيدان وحيدا في موته وهو محاط بالكتب والأوراق بلا سابق انذار ، ولا متقدم اخطار ••• فكثيرون في القديم والحديث ماتوا هذه الموته • وهي ميتة شريفة على كل حال ، وليست بموته على الفراش كما يموت العير ••• كما قال خالد بن الوليد ، ولكنها أشبه بميتة الجندي في ساحة الجهاد ؛ أليس طلب العلم جهادا من أشرف المجاهدات ؟ وتذكر مorte زيدان هذه بموتة محمود باشا الفلكي فجأة وهو محاط بالكتب والأوراق كما ذكر زيدان في سيرته التي كتبها له في « تراجم مشاهير الشرق » • كما

تذكرنا بموته أخرى لصديقنا شيخ المترجمين في العصر الحديث
عادل زعتر ، الذي مات في بيته بنابلس والقلم بين يديه في تشرين
الثاني - نوفمبر - سنة ١٩٥٧ لأنها آخر سنة من الهلال .

وقد توقف الهلال عن الصدور بعد وفاة صاحبه شهرين اثنين
لأنهما آخر سنة من الهلال ، ثم صدر عدد أكتوبر سنة ١٩١٤ ،
وفي فاتحته مقدمة بقلم ابنه « اميل » يقول فيها : (ما أصعب موقف
الابن يرثي أباه ! وليس كل الآباء كمن فقدت . وما أعجز الكلام
البشري عن تأدية ما يجيش في القلب ! لم تكد تنتهي السنة الثانية
والعشرون حتى أصيب الهلال بفقد مؤسسه ومنشئه ، فانهدم بموته
ركن عظيم من أركان الآداب العربية ، وخسر به العالم رجلا كبيرا
بعواطفه ، كبيرا بعقله ، كبيرا بأعماله . وكأني بموته قد سقط بناء
شامخ من العلوم والآداب والأخلاق الراقية . أن ذلك الصدر
الواسع الذي ضم العالم واضطرابات بين جناحيه يضمه اليوم قيد باع
من الأرض . لكن لا ! لم يمت جرجي زيدان . ولئن جهلنا خلوده
في العالم الآخر ومقره فيه ، فلا ريب في أنه خالد في هذا العالم ،
خالد في أفئدة أهله ومحبيه ، خالد بأعماله وآثاره العظيمة) .

ولقد رثى زيدان في الهلال عقب وفاته كثير من العلماء والأدباء
والمفكرين ، منهم أخوه مري زيدان ، وشبلي شميل ، ورفيق
العظم ، و خليل مطران ، وأحمد حافظ عوض الصحافي الأديب ،

ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وجبران خليل جبران ، وداود بركات ،
وأنطون الجميل ، وإدكتور شدودى وغيرهم •

وخرجت جنازة زيدان ، وفيها كثيرون من العلماء والأدباء
والشعراء وأصدقاء الرجل وتلاميذه ، وعلى رأسهم أحمد حشمت
باشا الذى كان وزيرا للمعارف فى تلك الأيام ، والذى كان صاحب
فضل على الشاعر محمد حافظ إبراهيم ، فأنقذه من مخالف يؤسسه
ويأسه وتعطله من العمل ، وعينه رئيسا للقسم الأدبى فى دار الكتب
المصرية سنة ١٩١١ ••

واشترك لفيف من شعراء مصر فى ذلك العهد فى تأييد جرجى
زيدان فى الحفل الذى أقيم له • وقد ازدحمت قائمة الشعراء
والخطباء يومئذ بأسماء كثيرة ، أما الذين لم يتسع حفل التأييد لهم،
فكان فى الأعداد التالية من مجلة الهلال مجال فسيح لهم •

ولم يتخلف أحمد شوقى ، ومحمد حافظ إبراهيم ، و خليل
مطران - وهم الذين كانوا يسمون بالشعراء الثلاثة - عن المشاركة
فى تأييد رجل أحسن الجميع بعظم المصيبة فيه ، وكذلك لم يتخلف
من بقية الشعراء حفى ناصف ، وولى الدين يكن ، فقد كانت
تربطهما بجرجى زيدان أحكم الصلات •

وقد ألم أحمد شوقى فى مراثيه اللامية وفى مطالع أبياتها
بحالة البلاد الشرقية ، وسأل نوابغ الرجال فى الشرق أن يهزوه

لعله يصححو من غفوته ، وتناشدهم أن ينفخوا فيه من روح اليقان
وحقيقة العلم لعله ينهض بعد عثرته ، وسألهم أن لا يجعلوا الدين
بابا للشر ، ولا محل مباهاة طائفة على طائفة ، فليس الدين الا تراثا
يتبع فيه الابن أباه ، ولا يد له فى اختياره ، ومضى شوقى فى نصائحه
لأبناء الشرق ، ثم عرج على العلم وقيمه ، وأن الأمة التى تمشى فى
الدنيا بالعلم يأبى الله لها أن تكون مقيدة تمشى بالأغلال . ثم انتقل
شوقى الى المفاخرة بنفسه - كعهده فى بعض قصائده مثل قصيدته
فى رثاء مصطفى كامل ، ونفذ من ذلك الى كثرة فجائعه بفرقة أحبابه
وكثرة مرآيه لهم ، حتى بات هو من فرقة الأحباب أهلا لأن يرثى .
وتطرق الى الموت والى الدنيا الخؤون التى لا أمان عندها ، ولا خلق
لها ، ووجد فى الموت أقصى ما يرام من راحة البال . وانتقل بعد
هذا الى « الهلال » وما يحتويه من روائع العلم والأدب ، والى
مؤلفات زيدان ورواياته ، وكان المقطع الخاص بروايات زيدان
التاريخية هو معقد الموازنة بين روايات الحياة ورواية الموت ، وبه
ختم مرثيته قائلا :

وضعت خير روايات الحياة ، فضع
رواية الموت فى أسلوبها العالى
وصف لنا كيف تجفو الروح هيكلها
ويستبد البلى بالهيكل الخالى

وهل تحن اليه بعد فرقه
كما يحن الى أوطانه الجالى ؟

هضاب لبنان من منعائك اضطربت
كأن لبنان مرمى بزلزال

كذلك الأرض تبكى فقد عالمها
كالأم تبكى ذهاب النافع العالى

ومرثية شوقى على فحولتها واحكام نسجها لم تعطنا صورة
لزيدان الا حين عرج الشاعر على « الهلال » والعلم والأدب ، وهى
صورة لم يبلغ بها شوقى مبلغ خليل مطران الذى أجاد عرض صورة
زيدان وملامحها الى حد كبير . وقد بدا الحزن والتفجع فى قصيدة
مطران ، وخاصة فى أبيات من مطالعها حيث يقول :

برغم المنى ذاك الختام المحير
كتابك تطويه ، ومنعاك ينشر

دهاك الردى فى الراحين فراعنا
كأنك غاد فى الصبى فمبكر

يراعك فى اليمنى ، وذهنك حاضر
وعزمك ذاك العزم والعود أنضر

أما مرثية الشاعر محمد حافظ ابراهيم فقد استهلها بأن الخطوب
عقدت لسانه ، وأنه سثم الوقوف على الجناير متلهفا يرثى الراحين

من أصحابه ، وأنه لا يزال من مصابه في فقد الأمام محمد عبده
سنة ١٩٠٥ في أمي يكفيه ، فلا موضع عنده لتحمل أحزان جديدة ،
وأنه بات بعد موت أصحابه ولداته مفردا وحيدا ينتظر ساعة موته :

دعاني زفافي والقوافي مريضة
وقد عقدت هوج الخطوب لسانى
فجئت وبى ما يعلم الله من أمي
ومن كمد قد شفتى وبرانى
ملك وقوفى بينكم متلهفا .
على راحل فارقه فشجاني
أفى كل يوم يبضع الحزن بضعة
... من القلب ؟ انى قد فقدت جنانى
كفانى ما لقيت من لوعة الأمي
وما نابنى يوم الامام كفانى
تفرق أحبائى ، وأهلى ، وأخوت
يد الله يومى ، فانتظرنى أوانى ...

بقى من المراثى الشعرية التى اخترناها من قصائد الشعراء
فى جرجى زيدان قصيدتان : أولاها لحقنى ناصف بك ، والثانية
لولى الدين يكن . أما قصيدة حقنى ناصف ، ففى مجموعة « شعر
حقنى ناصف » التى جمعها وأرخ لصاحبه ولده الأستاذ مجد الدين

ناصر ، وقد نهج فيها الشاعر رحمه الله نهجا غريبا لم نألفه في قصائد الرثاء ، الى حد أن ولده وناسر ديوانه اضطر الى التعليق على المراثية بقوله في الهامش : (وقد نحا الشاعر في رثائه نحوا جديدا ، بأن أغفل المعاني المطروقة في العلم والأدب ، ووصف الحرب وأدواتها الحديثة وأهوالها وصفا واقعا قويا) (١) • ولعل عذر حقني ناصر بك في سلوك هذا المسلك أن الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كانت قد اندلعت ناريها قيل وفاة زيدان بأسابيع ، وكانت أخبارها تهز العالم هزا عنيفا ، وقد امتلأت أعمدة الصحف بوصف أهوالها ومدافعها ورصاصها وغواصاتها ؟ فنقل الشاعر جو القصيدة من الرثاء الموضوعي المحض الى الأسى والتفجع على العالم الذي يهدده الدمار والخراب • ولعل نشر أبيات هنا من مراثية حقني ناصر يوضح لنا ذلك المنحى الجذيد الذي أشار اليه ولده • يقول الشاعر :

بربك يا زيدان هل كنت تعلم ؟
بان أديم الأرض يصبغه الدم ؟
وأن صنوف الموت تملأ وجهها
فلا موضع الا به النار تضرم
فأبغضت ظهر الأرض ، واعتضت بطنها
الا ان بطن الأرض أنجى وأسلم

(١) شعر حقني ناصر " ص ٥٣ •

وعفت قصورا بالمصابيح زينت
وراقك قبر في البلاقع مظلم
وما حسن قصر كل من فيه خائف
بجانب قبر فيه بيت محسوم ؟
أنست بمن تحت الثرى حامد السرى
وألهاك عنا عبد ضخم وجرحهم
ثم تطرق الشاعر الى الحرب وأهوالها ، وهو يدعو جرجى
زيدان الى أن يؤرخ للأنام حوادث تشيب لها الولدان هولا وتهرم ،
فيقول :

مدافع تستك المسامع دونها
وتخرج من أفواههم جهنم
إذا فغرت أفواهها لكريمة
تدك الرواسى والحصون تحطم
وسفن تبارت فى المسير أراقما
إذا زال منها أرقم صال أرقم
ويلاحظ غرام حفى ناصف حتى سنة ١٩١٤ بالمحسنات
البديعية فى شعره ، كالجناس بين الثرى ، والسرى ، وبين زال وصال
فى البيت الأخير •

أما مرثية الشاعر ولى الدين يكن فلم تكن طويلة ، فلم تتجاوز

أبياتها العشرين بيتا ، وقد لجأ في ثاني أبياتها الى مناجاة زيدان الذي
كان يقضى ليله ساهرا ، ثم هجع وما كان العهد به أن يهجع • ولم
يكن سهر زيدان بين الغواني والملاهي ، ولكنه سهر بين المحابر
والدفاتر • وأشار الى خسوف (الهلال) ليلة تمامه ، وهي ضجعة
ليس من بعدها قيام ، وتمنى على الموت لو أمهله حتى يودع أصحابه
ويودعوه • وخلص من ذلك في سرعة الى فضل زيدان الذي
لا تحجبه صخور القبور ولا جنادها • فهو مثل « الراديو » النفاذ
الذي تخرق أشعته أكثف الأجسام • ولا بأس من إيراد بضعة
أبيات من هذه المراثية :

نادوا بالسنة الرثاء فأسمعوا
جهد الحزين تذكر وتوجع
يا ساهرا والليل يعثر بالكرى
عجبا هجعت وما عهدتك تهجع
بين المحابر والدفاتر مجلس
هو للمعارف والمعالى موضع
خسف الهلال به عشية تمه
من بعد ما قد كان منه يطلع
هي ضجعة ما أعقبها نهضة
فقضى الضجيع كما أقض المضجع

لو أمهلتك لكى تودع مشرا
سبقت قلوبهم اليك تودع

زيدان فضلك ليس يحجبه الثرى
الفضل من تحت الجنادل يسطع
كالرديوم الوهاج الا أنه
أمضى شعاعا فى العيون وأبدع ..

بقى أن نقول ان هناك كثيرين من الأدباء الشعراء فى الوقت
الذى مات فيه زيدان لم يتخلفوا عن المشاركة فيما رأوه واجبا عليهم
نحو رجل خدم اللغة والأدب والتاريخ أكثر من ثلاثين عاما . وظل
«هلاله» يتنقل فى سماء الأدب والعلم اثنين وعشرين عاما ، فنظموا من
القصائد ما يعبر عن شعورهم بالفجيعة . ومن هؤلاء الطيب السورى
المنصر الدكتور ابراهيم شلوى (١) ، الذى كان يقول الشعر من

(١) ليس للدكتور ابراهيم شلوى ديوان مطبوع . وكان شعراء - وخاصة
زجلياته الفكاهية - ينشر فى الصحف والمجلات فى ذلك العهد . ولم نعثر له على
ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر ، وتحدث عنه الاب لويس شيخو السيوى
بسطر واحد فى كتابه « الآداب العربية فى الربع الاول من القرن العشرين ص
١٦٤ قائلا : (وعنى الدكتور شلوى ابراهيم - يريد ابراهيم شلوى -
بالزجليات ، فأخرجها على صورة لطيفة انتشرت بعدة جرائد) .

حين الى حين • وقد قرأنا له فى رثاء زيدان قصيدة جيدة نشرت
فى هلال سنة ١٩١٤ وفيها يقول :

مقامك فوق العلا صاعد

وجسمك تحت الثرى راقد

وصيتك يجتاز عرض البحار

وأنت طويل الكرى هامد

وجيل يبدء ، وجيل يجي

وذكرك ما بينهم خالد

وفضلك بين بنى الشرق رغم

تباين أديانهم واحد ...

ولست بمفتقر للشهود

ففى كل مكتبة شاهد

ولقد رأينا دموع أهل زيدان تتهمر مع دموع الباكين عليه ،
فاذا ولده اميل ينعاه ويرثيه فى كلمة باكية مبكية تذيب القلوب ،
نشرها فى أول عدد من الهلال صدر بعد وفاة الفقيد ، ورأينا شقيقه
مترى يرثيه أيضا بكلمة فى العدد نفسه ، وقرأنا بضعة أبيات لشقيقه
«ابراهيم زيدان» - صاحب مكتبة الهلال بالفجالة - يرثى بها أخاه

وقد أودعها ديوانه الذي نشره بعنوان « ذكريات » - وصدر عن
مكتبة الهلال بدون تاريخ - وفيها يقول :
قضى دون أن يقضى مناه ، ومن يذب
قريحته في العلم من قبره يدنو
ذوى غصنه رطبا ، وقلبي حائم
عليه فذاق القلب ما ذاقه الغصن
إذا حال داعي البين بيني وبينه
فروحي ما زالت الى روحه ترنو
يقولون لي صبرا فما الدمع في الأمل
بمجد ، فقلت الصبر أن تصبر العين
عليك سلام الله ما فاض مدمعي
وما هاج من ذكراك في كبدي حزن

السنة الخلق أقلام الحق

سنجعل هذا الفصل معرضاً لآراء الباحثين والمفكرين والعلماء والأدباء في تقدير جرجي زيدان ووزنه بموازين العدل من وجهات نظر مختلفة لأصحاب هذه الموازين • ولعل هذا المعرض - بما احتشد فيه من آراء الرجال - يصور لنا جرجي زيدان على أتم صورة وأقربها إلى الحقيقة •

وكل رأى هنا هو خلاصة مركزة لفكرة صاحبه عن المترجم له ، وقد تلتقى بعض هذه الخلاصات فيتكرر الرأى عند اثنين أو أكثر ، وقد يكون الرأى فريداً لم يشترك معه غيره من الآراء ، والنتيجة سواء في التفرد والالتقاء ، وهى أن جرجي زيدان شغل من تفكير المفكرين ما يستأهله من التقدير والحمد والتناء •

• فالدكتور محمد حسين هيكل يقول عن زيدان : (جرجي

أفندي زيدان من أكبر كتاب التاريخ في مصر ، بل لا أبالغ اذا قلت انه هو الرجل الوحيد المتفرغ في الوقت الحاضر لكتابة التاريخ) •
« في أوقات الفراغ » ، ص ٢١٥ •

• والدكتور طه حسين يقول : (ان جرجي زيدان هو الذي نقل الى الأدب العربي مذهباً من مذاهب الأدب الأوربي : هو القصص التاريخي) • • من أعلام الفكر والأدب ، ص ٨٧ •

• والمرحوم عباس محمود العقاد يقول : (ان جرجي زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعية ، وسميه نحن بكتاب الاستواء والطبع السليم • تقرأ جرجي زيدان في جميع موضوعاته فاذا هو مطبوع بطابع السداد والاستقامة والسواء • هي جدول وليست بشلال ، وهي بنت الدوام وليست بنت الفلتات واللمحات)
« المصدر السابق » •

• والدكتور يعقوب صروف يقول عن مؤلفات زيدان :
(... واستخلص من ذلك كتباً ممتعة في آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأي ، والبراعة في التبويب والتسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها الى كثير من اللغات الشرقية والغربية • وبحث في تواريخ دول الاسلام وألف فيها كتاباً جليلاً ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ) « مجلة المقتطف » • عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ •

♦ والشيخ أحمد الاسكندري وزملاؤه أحمد أمين ، وعلى الجارم ، وعبد العزيز البشري ، وأحمد ضيف يقولون : (.. من هذا القدر الموجز من تاريخ جرجي زيدان تدرك مبلغ همته ، وصدق عزمه ، وشدة بلائه في سبيل العلم والأدب . وخاصة اذا ذكرت أنه بدأ الحياة وهو مقطوع الوسائل ، مبتور الذرائع ..)
« الفصل ج ٢ ص ٤٠٢ » ♦

♦ والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى يقول فيه : (تطلع الشمس فى كل صباح من شرقها على هذه الكائنات ، ناطقها وصامتها ، حيها وميتها ، جامدها وسائلها ، فتستمد منها كل مادة حياتها التى تقومها ، أو صورتها التى تشكل بها . وكذلك كان جرجي زيدان فى سماء هذا البلد . لقد كان زيدان روحا عالية تمنيناها ، فلما وجدناها نعمنا بها قليلا ، ثم فقدناها أحوج ما نكون اليها) « مجلة الهلال » سنة ١٩١٤ ♦

♦ والصحافى الأديب أحمد حافظ عوض يقول : (لا أظن أنه وجد فى العالم العربى ، فى العصر الأخير ، من ترك كمية كبيرة من العمل العلمى والأدبى الجدى مثل منشئ الهلال . فأن رواياته ومجلدات الهلال ، ومؤلفاته التاريخية واللغوية والأدبية تكون فى مجموعها موسوعات كبيرة . ولولا أننا ونحن المعاصرين « كذا » له نعلم علما لا مسرب للظن فيه أن الفقيه هو الذى كتب بقلمه كل هاتيك المنشآت ، ورتب أبوابها ، وابتكر موضوعاتها ، وراقب بنفسه

طبعها ووضعها ، منفردا لا يعلى على محررين مأجورين ، ولا يشترك مع طائفة من الأدباء الكاتين ، لولا ما تعلمه من يقين صحيح لداخلنا الشك أو تسربت إلينا بعض الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظم على كاتب واحد) • • الكتاب الذهبى للهلال سنة ١٩٤٢ • •

• والصحافى الأديب أنطون الجميل يقول : (فى هذا الجمع الموقر الذى التف حول الهلال كثيرون هم زملاء الفقيه ورفقاؤه فى معاناة صنعة القلم ؟ فهم أدرى من سواهم بما يكابده المؤلف فى الشرق من العناء فى جمع مواد وتأليفها فى أى فن من فنون الكتابة . لذلك يدرون كم كانت لغتنا مدينة لجامع أشقات تاريخها وتاريخ آدابها ، وتاريخ شعوبها) • مجلة الهلال • عدد نوفمبر سنة ١٩١٤ • •

• ومؤرخ الاسلام رفيق العظم يقول : (انى عانيت من تاريخ العرب ما يعانى المؤرخون ، وعرفت من صعوبته ما لم يعرفه الا من عانى ما عانيت من المشقة فى انتقاء الحوادث والأخبار . فتم أر أحسن من الأسلوب الذى اتبعه فى كتبه المرحوم جرجى زيدان ، ولا أدق ترتيبا للمواضيع ، واختيارا للحوادث ، خصوصا فيما يتعلق بالمدينة الاسلامية • فحق على كل مؤرخ أن يعترف بفضل جرجى زيدان

على التاريخ العربى ، بيان ما لم يسبق اليه من آثار المدنية العربية
وتاريخها) « الكتاب الذهبى للهِلال » .

♦ والمحامى الأديب سامى الجريدينى يقول : (ابتداء زيدان
يحرر الهلال منذ عشرين سنة ونيف ، فكان فى أول سنة من سنى
الهلال يقف الى مكتبه وقوفا ، يحزر فصلا أدبيا أو اجتماعيا ،
ويترجم رجلا مشهورا ، ويؤلف رواية تاريخية ، ثم يراقب الطبع
والتصحیح ، دأبا على العمل نهارا وليلا . ثم توفى ، وكان قبل
الوفاة يبضع دقائق واقفا وقفته ، لم يقلل ساعات العمل ، ولم يتضجر
أو يتأفف يوما من كثرتة) مجلة الهلال سنة ١٩١٤ .

♦ ويقول الأب لويس شيخو اليسوعى : (... على أننا
لا ننكر أنه كان أحد أركان النهضة الأدبية الجديدة فى الشرق
الأدنى) « الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين »
ص ٧١ .

♦ ويقول الأستاذ أنيس المقدسى : (... هذا من حيث
القصة ، أما من حيث مؤلفات زيدان التاريخية والأدبية فانه يحتل
الصدارة بين كتاب العصر . وهو ركن كبير من أركان النهضة
الأخيرة) « الفنون الأدبية وأعلامها » ص ٥١٧ .

♦ ويقول الأستاذ يوسف أسعد داغر : (خصص حياته لجلو
وتظهير التاريخ العربى والاسلامى ، فكان بذلك من أكبر خدام

القضية العربية ، والعامل الأكبر في البعث القومي) : « مصادر
الدراسة الأدبية » ، ح ٢ ص ٤٤٣ •

♦ ويقول الأستاذ مارون عبود : (ان لزيدان فضلا جزيلا
على النهضة الحديثة ، فهو من أركانها الكبار • قد علم الناس
تاريخهم ، وسلاهم معا) « رواد النهضة الحديثة » ، ص ١٧٢ •

♦ ويقول المرحوم طاهر الطناحي : (اذا ذكر العصاميون الذين
بنوا أنفسهم ، وشادوا للانسانية صروحا عالية في مختلف الميادين
بأعمالهم المجيدة ، وجهودهم الممتازة ، فان جرجي زيدان في المقدمة
بين هؤلاء العصامين الأفاضل) « عصاميون عظماء من الشرق والغرب »
ص ٦٩ •

♦ ويقول الدكتور حسين مؤنس : (... وأنا أشير الى ذلك
هنا لأن قصة كفاحه تلك هي أحسن تفسير لما نجد في مؤلفاته من
التبحر والاحاطة وصدق الملاحظة وعمق النظرات • فما كان هذا
كله يتأتى لرجل ، الا اذا كانت حياته قد أذكت في كيانه فحولة
كفيلة بالوصول بصاحبها الى ما لا يصل اليه من لم يعرف مغالبة
الظروف ، ومطاوله الأيام) « تاريخ التمدن الإسلامي » ، المقدمة
ص ٦ •

♦ ويقول المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال : (وكبير
المؤرخين السوريين في مصر في أواخر القرن التاسع عشر هو

جرجى زيدان () وجرجى زيدان يعتبر الرائد الأول فى كتابة
القصة التاريخية () • « التاريخ والمؤرخون فى مصر » ص ١٨٥ -
١٨٦ •

• ويقول الدكتور محمد يوسف نجم : (••• واستطاع
بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضى الطبقات المختلفة • ألف
كثرا علمية وتاريخية ترضى الخاصة ، وألف هذه القصص ، التى
اعتمد فيها على تاريخ العرب والمسلمين ، لكى يلفت اليه أنظار العامة
التى كانت تتلهى بالقصص الشعبى وأكثره تافه • واستطاع زيدان
أن يرضى هذه الطبقة أيضا وأن يستميلها الى قصصه ، كما أرضى
بآثاره الأخرى سواها من الطبقات • وهكذا كان زيدان معلما
للشعب بعامة ، على اختلاف طبقاته وثقافته ••) « القصة فى الأدب
العربى الحديث » ص ١٨٨ •

• ويقول الدكتور عبد المحسن طه بدر : (وقد حاول
جرجى زيدان فى ميدان الرواية ما حاوله مطران فى ميدان الشعر ،
فحاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية ، وبين تأثره بالشكل
الروائى الغربى من ناحية أخرى • وكان له أكبر الأثر فى ظهور
التيار الثانى من الرواية التعليمية) « تطو الرواية العربية الحديثة »
ص ١٠٦ •

• ويقول المستشرق الرومى كراتشكوفسكى : (وقد أبرز

الربيع الأول من القرن العشرين ما كان لزيدان من شأن كبير •
وسيطل اسمه مذكورا على الدوام في تاريخ الأدب العربي الحديث،
وفي المجتمع العربي الحديث (« دائرة المعارف الإسلامية » •

مادة زيدان المجلد ١١

• ويقول الدكتور محمود حامد شوكت : (فلا ينكر أن
الكاتب - يريد زيدان - بذل جهده في توسيع أفق الثقافة التاريخية،
لا سيما نواحي الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية في التاريخ
الإسلامي الوسيط ، وحاول أن يتفح بمطالعته في الثقافة الغربية ،
متأثرا بمحاولات علم النفس ، للمواطن والتزعات ، والحب
والبغض ، وفتح بذلك باب الاجتهاد والارتداد لمن يواصل الكتابة
في هذا الباب ، فهو رائد له فضل التضحية والجهاد ، وقد ترك لمن
بعده مواصلة الاجتهاد في تمثل التاريخ والتعبير عنه في فن ذي
وحدة أعمق ، وذو معنى أكثر انسانية ...) « الفن القصصي في
الأدب المصري الحديث » ص ١٥١ - ١٥٣ •

• ويقول أحمد أمين والدكتور زكي نجيب محمود : (وأخيرا
جاء جورجى زيدان ، فنحا بالتاريخ نحوا جديدا اتبع فيه أسلوب
الفرنيج في جمع النصوص وبحثها ، والاستنتاج منها ، ودراسة
الأسباب والنتائج) - « قصة الأدب في العالم » ، ج ٣ ص ٣٤١ •

مؤلفاته

لقد أشار المرحوم أحمد حافظ عوض الى ضخامة الانتاج الذى أخرجه جرجى زيدان ، وقال بأنه لولا يقينا وعلمنا الذى لا مسرب للظن فيه بأن الرجل هو الذى كتب بقلمه كل هذا الانتاج منفردا ، لم يشركه فيه واحد ، لداخلنا الشك أو تسربت إلينا الظنون بأنه لم يكن فيه منفردا ، ذلك لأنه عمل كبير مستعظم على كاتب واحد .

والذين يعنون بتقسيم الموضوعات التى ألف فيها زيدان لا يجدون صعوبة فى ملاحظة أنها تتناول التاريخ ، والتراجم والسير ، والجغرافية ، وتاريخ الآداب العربية ، والاجتماع ، والقصة التاريخية الطويلة . وستناولها كتابا كتابا ، مع الاهتمام بإيضاح موضوع كل كتاب وتاريخ صدوره ، وما أثير حوله من نقد .

أولا : كتب التاريخ

١ - تاريخ التمدن الاسلامي . وكانت أولى طبعاته سنة ١٩٠٢ ، لا سنة ١٩١٠ كما ذكر الدكتور حسين مؤنس - وهما - في مقدمته للطبعة الأخيرة من هذا الكتاب ، وجاء الوهم الى الدكتور مؤنس من قول زيدان نفسه في مقدمة الطبعة الأولى بأنه رأى أن يجعل تمة السنة « العاشرة » من الهلال كتابا في هذا الموضوع ، ففهمها الدكتور حسين مؤنس بأنها سنة ١٩١٠ ، والحق أنها السنة العاشرة من انشاء الهلال ، أي سنة ١٩٠٢ وقد صدر الكتاب في خمسة أجزاء تقرب من ألف ومائتي صفحة . وهو مزين بالصور والرسوم الكثيرة ، والخرائط ، والأشكال التوضيحية . وقد تناوله بالنقد جماعة منهم الأب لويس شيخو اليسوعي في مجلة المشرق ، والدكتور يعقوب صروف في المقتطف ، ومصطفى جواد في السنة التاسعة عشرة من مجلة العرفان التي أنشأها أحمد عارف الزين في صيدا . لبنان .

٢ - تاريخ مصر الحديث مع فذلكة في تاريخ مصر القديم . وقد ظهرت طبعته الأولى بمصر سنة ١٨٨٩ ، أي قبل صدور مجلة الهلال بعامين . ونشرت المقتطف نقدا له في العام نفسه . وقد أودعه المؤلف مشاهداته لأحداث مصر في عصره ، كما أودعه أخبار عهد الاحتلال البريطاني ، وما رآه بعينه في الحملة النيلية الأنجليزية على السودان لانتفاذ غوردون باشا .

٣ - العرب قبل الإسلام • وقد صدر منه جزء واحد فقط.
سنة ١٩٠٨ ، ولم تصدر بعد ذلك بقية أجزائه • وتولت مجلتنا
المقتطف ، والمشرق نقده ، وقد ظهرت له أخيرا طبعة محققة ومعلق
عليها بقلم الدكتور حسين مؤنس •

٤ - التاريخ العام ، منذ الخليفة الى الآن • وقد صدر منه
جزؤه الأول سنة ١٨٩٠ ببيروت ، ولم يكمله بعد ذلك • وقد نقده
المقتطف فور صدوره في المجلد الرابع عشر •

٥ - تاريخ انكلترا الى الدولة اليوركية • وقد صدر عن
مطبعة الهلال بمصر سنة ١٨٩٩ • وهو تاريخ وجيز لا تزيد
صفحاته على الثمانين اقليلًا • وقد نشر نقد له في المقتطف
بالمجلد ٢٣ ، وفي مجلة المشرق بالسنة الثالثة •

٦ - تاريخ الماسونية العام • وقد صدر بمصر سنة ١٨٨٩ •
وفي السنة الرابعة عشرة من مجلة المقتطف نقد له • ووصفه الأب
شيخو بأن مؤلفه « ذهب فيه الى مذاهب صيانية خرافية ، اعتبرها
كحقائق راهنة » •

٧ - تاريخ اليونان والرومان • وقد صدر عن مصر بدون
تاريخ •

٨ - طبقات الأمم ، أو السلائل البشرية • ظهرت أولى طبعته
بالقاهرة عن مطبعة الهلال • وانتقده الدكتور يعقوب صروف في

المقتطف ، والأب أنستاس ماري الكرمل في لغة العرب ، والأب
لويس شيخو في المشرق •

٩ - أنساب العرب القدماء • ويذكر يوسف أسعد داغر أنه
طبع في مطبعة الهلال سنة ١٩٢١ ، أي بعد وفاة زيدان ببضعة
أعوام • ولا أدري إذا كانت صدرت له طبعة قبل هذه • وقد أغفل
كراتشكوفسكي ذكر تاريخ طبعه ، وأضافه الى بعض كتب جرجي
زيدان التي « لم تلق نجاحا كبيرا » •

ثانيا : كتب التراجم والسير

١٠ - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر • وقد
صدرت أولى طبعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠٢ ، لا سنة ١٩٠٧ ،
كما وهم الأستاذ يوسف أسعد داغر • وظهرت طبعته الثانية سنة
١٩١٠ لا سنة ١٩١١ ، كما جاء عند داغر أيضا • وقد تناول نقده
المقتطف في المجلد ٢٨ سنة ١٩٠٣ ، كما انتقده الأب لويس شيخو
اليسوعي في المشرق بالسنة السادسة •

ثالثا : كتب الجغرافية

١١ - عجائب الخلق ، ونستطيع أن نعهده من كتب التاريخ
الطبيعي ففيه أمثلة كثيرة من عجائب المخلوقات • وقد طبع سنة
١٩١٢ في أولى طبعاته عن دار الهلال •

١٢ - مختصر جغرافية مصر • وقد طبع لأول مرة في مطبعة التآليف سنة ١٨٩١ ، وهي المطبعة التي أنشأها زيدان ونجيب مئري مشتركين كما في الفصل الخاص بموجز سيرة الرجل ، وهو صغير الحجم يبلغ حوالى سبعين صفحة •

رابعا : مؤلفات فى اللغة العربية وتاريخ آدابها

١٣ - الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية • واسمه فى سيرة زيدان الملحقه بالجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية : « الفلسفة اللغوية » ، واسمه عند المستشرق كراتشكوفسكى « فلسفة اللغة العربية » • وقد أسماه يوسف أسعد داغر « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » ، على أن زيدان نفسه يذكره فى مقدمة كتابه « اللغة العربية كائن حى » باسم « الفلسفة اللغوية » • وكانت أولى طبعات الكتاب سنة ١٨٨٦ ببيروت ، وهو الكتاب الذى استحق من أجله عضوية المجمع الآسيوى الملكى فى إيطاليا • وقد انتقده المقتطف فى السنة العاشرة ، لا فى السنة الثامنة كما ذكر خطأ يوسف أسعد داغر •

١٤ - تاريخ اللغة العربية : باعتبار أنها كائن حى نام ، خاضع لناموس الارتقاء وقد ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٤ عن مطبعة الهلال بمصر • ونشرت المقتطف نقدا له فى سنتها الرابعة

والعشرين • وصدرت طبعة أخيرة جديدة لهذا الكتاب بمراجعة الدكتور مراد كامل وتحقيقه •

١٥ - البلغة في أصول اللغة • ولم نهدد إليه ولا الى تاريخ طبعه • وقد كاد ينفرد بذكره كتاب « مصادر الدراسة الأدبية » ، ليوسف أسعد داغر • أما ترجمة زيدان في آخر الأجزاء من تاريخ آداب اللغة العربية فلم تذكره ولم تشر إليه في ثبت مؤلفاته ، كما لم يذكره كراتشكوفسكى • أما يوسف أليان سيركيس فقد ذكره معجمه بدون تاريخ ولعله هو الذى نقل عنه يوسف أسعد داغر •

١٦ - تاريخ آداب اللغة العربية • فى أربعة أجزاء ضخام • ظهرت أولى طبعاته سنة ١٩١١ ، ولنا دراسة مفصلة عنه فى الجزء العاشر من المجلد الرابع من « تراث الانسانية » • وصدرت له طبعة أخيرة جديدة بتعليقات وإضافات كثيرة فى الهوامش بقلم الدكتور شوقى ضيف • ولا نميل الى رأى الدكتور أنطون كرم الذى لا يرى (أن شوقى ضيف الذى تولى الاشراف على الطبعة الأخيرة ، قد أضاف كبير شىء الى هذه الموسوعة الأدبية الوصفية) فان تتبعه لما استحدث من كتب ودراسات بعد الطبعات الماضية من هذا الكتاب كان عملا يستحق التويه به • وقد انتقده الأب الكرملى فى مجلة لغة العرب ، والأب لويس شيخو فى المشرق سنة ١٤ ، جزء ٨ ، ونجفى من آل كاشف الغطاء فى مجلة العرفان بصيدا ، والشيخ

أحمد الاسكندري في مجلة المنار للسيد رشيد رضا • سنة ١٥ •
وسنة ١٦ •

خامسا : مؤلفات في الاجتماع

١٧ - علم الفراسة الحديث • وموضوعه الاستدلال على
أخلاق الناس وقواهم ومواهبهم من النظر الى أشكال أعضائهم •
وقد ظهرت أولى طبعاته عن دار الهلال سنة ١٩٠١ • وقد حل عنه
الأب شيخو : (ومما لم نستحبه له كتاب علم الفراسة الحديث ،
مع ما فيه من الأوهام والخيالات) • وفي المجلد السادس والعشرين
من المقتطف نقد له ، كما أن في مجلة المنار سنة ١٩٠١ نقدا
آخر له •

١٨ - مختارات جرجي زيدان • وهو مجموع مقالات نشرت
في أعداد متفرقة من الهلال في فلسفة الاجتماع وال عمران ، وجمعت
في كتاب واحد يشتمل على ثلاثة أجزاء ، ظهر بعد وفاة زيدان
بسته أعوام سنة ١٩٢٠ • وقد نشرت مجلة المشرق نقدا له في
المجلد ٣٠ •

١٩ - رد رنان على نبش الهذيان • وقد ظهرت طبعته الأولى
سنة ١٨٩١ وهو رد على الكتاب الذي ألفه أمين المدني في نقد

زيدان ، وهو أصغر كتب زيدان حجما ، ويقع في اثنتين وثلاثين
صفحة •

سادسا : الروايات التاريخية

تبلغ روايات جرجي زيدان التاريخية ثلاثا وعشرين رواية •
وقد سبق لنا حصرها والحديث عنها في فصل خاص صفحة ٩٥ -
٩٨ •

سابعا المخطوطات :

♦ مصر العثمانية : ويشمل تاريخ مصر من الفتح العثماني
إلى الحملة الفرنسية ، ويقع في أربعة أجزاء • وكان هذا الكتاب
معدا ليكون محاضرات تلقى في الجامعة المصرية القديمة • ومنه
نسخة بخط جرجي زيدان نفسه مودعة بجامعة فؤاد الأول - ٧٥
م ، ف ٣٠٠٢ •

المراجع والمصادر

مرتبة وفق حروف الهجاء

- ١ - الآداب العربية في القرن التاسع : الأب لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٤ •
- ٢ - الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين : الأب لويس شيخو اليسوعي ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٦ •
- ٣ - الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث : أنيس المقدسي ، بيروت سنة ١٩٦٠ •
- ٤ - الأدب العربي في آثار الدارسين : لجنة من الأساتذة ، بيروت سنة ١٩٦١ •

٥ - تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان ، الطبعة ٣
- دار الهلال ، مصر سنة ١٩٣١ والطبعة الأخيرة ، القاهرة
سنة ١٩٥٩ •

٦ - تاريخ التمدن الإسلامى : جرجى زيدان ، الطبعة
الأخيرة ، مطبعة الهلال سنة ١٩٥٩ •

٧ - تاريخ الدعوة الى العامة وآثارها فى مصر : الدكتور
نفوسة زكريا سعيد ، القاهرة سنة ١٩٦٤ •

٨ - تاريخ الصحافة العربية : الفيكونت فيليب دى طرازى •
المطبعة الأمريكية ، بيروت سنة ١٩٣٣ •

٩ - تاريخ الطباعة فى الشرق العربى : خليل صابات ، دار
المعارف ، مصر سنة ١٩٥٨ •

١٠ - تاريخ مصر الحديث : جرجى زيدان ، مطبعة الهلال ،
القاهرة سنة ١٩٢٥ •

١١ - التاريخ والمؤرخون فى مصر : جمال الدين الشيال ،
القاهرة سنة ١٩٥٨ •

١٢ - تراث الانسانية ، المجلد الرابع ، العدد العاشر ، القاهرة
سنة ١٩٦٦ •

١٣ - تراجم مشاهير الشرق : جرجى زيدان ، مطبعة الهلال
القاهرة سنة ١٩١٠ •

- ١٤ - التراجم والسير : محمد عبدالغنى حسن ، دار المعارف ،
مصر سنة ١٩٦٩ •
- ١٥ - تطور الرواية العربية الحديثة : عبد المحسن طه بدر ،
دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٣ •
- ١٦ - دائرة المعارف الاسلامية : مادة زيدان ، المجلد الحادى
عشر •
- ١٧ - ديوان الحليل : خليل مطران ، مطبعة دار الهلال ،
القاهرة سنة ١٩٤٩ •
- ١٨ - ديوان ذكريات : ابراهيم زيدان ، مكتبة الهلال ،
القاهرة ، بدون تاريخ •
- ١٩ - ديوان شعر حفى ناصف : جمع ولده مجد الدين
ناصف ، دار المعارف سنة ١٩٥٧ •
- ٢٠ - ديوان الشوقيات : أحمد شوقى ، ح ٣ ، القاهرة
سنة ١٩٣٦ •
- ٢١ - ديوان محمد حافظ ابراهيم : شرح لجنة من الأساتذة ،
مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٧ •
- ٢٢ - ديوان ولى الدين يكن ، مطبعة المقطم والمقتطف ، مصر
سنة ١٩٢٤ •

٢٣ - رواد النهضة الحديثة : مارون عبود ، بيروت سنة

• ١٩٥٢

٢٤ - شكرى شغشاعة الانسان الأديب : البدوى المثلث ،

عمان ، الأردن سنة ١٩٦٤ •

٢٥ - العرب قبل الاسلام : جرجى زيدان ، دار الهلال ،

مصر سنة ١٩٥٩ •

٢٦ - عصاميون عظماء من الشرق والغرب : بأقلام نخبة من

الكتاب • دار الهلال • القاهرة •

٢٧ - الفن القصصى فى الأدب المصرى الحديث : محمود

حامد شوكت ، القاهرة بدون تاريخ •

٢٨ - الفنون الأدبية وأعلامها : أنيس المقدسى ، بيروت سنة

• ١٩٦٣

٢٩ - فى أوقات الفراغ : محمد حسنين هيكل ، ط ٢ ،

القاهرة سنة ١٩٦٨ •

٣٠ - القصة فى الأدب العربى الحديث : محمد يوسف نجم،

القاهرة سنة ١٩٥٢ •

٣١ - الكتاب الذهبى للهلال ، القاهرة سنة ١٩٤٢ •

٣٢ - اللغة العربية كائن حى : جرجى زيدان ، دار الهلال •

مصر •

٣٣ - مختارات دار الهلال ، مطبعة دار الهلال ، مصر سنة ١٩٤٦ •

٣٤ - مرآة العصر ، في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر :
ألياس زخورة ، مصر سنة ١٨٩٧ •

٣٥ - مصادر الدراسة الأدبية : يوسف أسعد داغر ، بيروت
سنة ١٩٥٥ •

٣٦ - مصطفى كامل : عبد الرحمن الرافعي ، مطبعة الشرق ،
القاهرة ١٩٣٩ •

٣٧ - مع المخطوطات العربية : أغناطيوس كراتشكوفسكي ،
مطبعة التقدم ، موسكو ، بدون تاريخ •

٣٨ - معالم الفكر العربي المعاصر : أنور الجندي ، القاهرة
سنة ١٩٦٦ •

٣٩ - معجم المطبوعات العربية والمصرية : يوسف أليان
سركيس ، القاهرة سنة ١٩٢٨ •

٤٠ - معجم (الأعلام) : خير الدين الزركلي ، القاهرة •

٤١ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ، مطبعة الترقى ،
دمشق ١٩٦٠ •

٤٢ - الفصل فى تاريخ الأدب العربى : أحمد الأسكندرى
وزملاؤه ، مصر سنة ١٩٣٦ •

٤٣ - من أعلام الفكر والأدب : أنور الجندى ، القاهرة سنة
١٩٦٤ •

٤٤ - الموسوعة العربية الميسرة : اشراف محمد شفيق غربال،
القاهرة سنة ١٩٦٥ •

٤٥ - النشر العربى المعاصر فى مائة عام : أنور الجندى ،
القاهرة « بدون تاريخ » •

٤٦ - الهلال الماسى ٧٥ عاما ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٧ •

المجلات

• مجلدات الهلال ، والمقتطف ، والمنار ، والمشرق •

فهرس

الموضوع	الصفحة
الحياة فى سطور	٧
صور من الطفولة والمدرسة	١٥
العصامية وسر النجاح	٢٥
رحلات ومشاهدات	٣٥
زيدان المعلم والأستاذ	٤٥
مناهج التأليف عند زيدان	٥٥
المؤرخ ومنهجه التاريخى	٦٧
كاتب التراجم	٧٧
رائد فى تاريخ الأدب	٨٧
زيدان والروايات التاريخية	٩٥
بين الصحافة والصحافة الأدبية	١٠٧
التثقيف الذاتى والتعويل على المصادر	١١٩
كتب زيدان بين النقد والرواج	١٢٧
أسلوب زيدان بين اللفظ والمعنى	١٣٩
موقف حائر	١٥٣

الموضوع	الصفحة
بين العلم والسياسة	١٦٣
صلاته بالمستشرقين	١٧٣
نزعة شعبية غير أرسقراطية	١٧٩
باقة من الأخلاق	١٨٥
زيدان الأب	١٩٣
نهاية الحياة ودموع الوفاء	٢٠٥
السنة الخلق أقلام الحق	٢٢١
مؤلفاته	٢٢٩
المراجع والمصادر	٢٣٧

ملزم التوزيع
في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

وكيف التركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ - فرع شرف	٣٠ - شارع شرف	١٠٠١٧ - لمعون
٢ - فرع ٢٦ يوليو	١٩ - شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٩ - المحرم
٣ - فرع ميدان عربي	٥ - ميدان عربي	١٦٣٨٣ - المحرم
٤ - فرع المستنصر	١٣ - شارع محمد مرمر	٧١١٢٦ - المحرم
٥ - فرع الجمهورية	٢٧ - شارع الجمهورية	٩١٠٥٤٢ - المحرم
٦ - فرع عيسى	١٤ - شارع الجمهورية	٩١٤٧٣ - المحرم
٧ - فرع الصير	ميدان الصير	١٥٨ - المحرم
٨ - فرع الحيزه	١ - ميدان الحيزه	٨٩٤٣١٩ - القاهرة
٩ - فرع أسوان	السوق الشعبي	٩٩٥٠ - ديوان
١٠ - فرع الاسكندرية	١٩ - شارع مدون	٧٥٩٧٨ - الاسكندرية
١١ - فرع طنطا	ميدان الساعة	٧٥٨٤ - طنطا
١٢ - فرع المنصورة	ميدان المنصورة	المنصورة
١٣ - فرع أسوط	شارع الجمهورية	أسوط

مواقع ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية السورية

١ - مركز توحيد القرائن	شارع من ميجي لعمري رقم ١١ مكر	القراي
٢ - مركز توحيد لسان	شارع دمشق	بيروت
٣ - مركز توحيد القرائن	ساحة سحر	سجاد
٤ - عبد الرحمن الكبالي	شارع ٢٩ آذار - دمشق	سوريا
٥ - الشركة العربية للتوزيع	من - رقم ١٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ - قاسم الرجب	مكة خني - سجاد	القراي
٧ - رحا العيسى	وكالة التوحيد - عمان	الأردن
٨ - عبد العزيز العيسى	شارع التوحيد من - ١٥٧١	الكويت
٩ - وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ - مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص - ليبيا	ليبيا
١١ - محمد شير القرائن	٥٣ شارع عمرو بن العاص	٥٣ شارع عمرو بن العاص
١٢ - الشركة الوطنية للتوزيع	شارع الرشيد	شارع الرشيد
١٣ - وكالة الأهرام	المباحة - الطبع لعمري	المباحة - الطبع لعمري
١٤ - المكتبة الوطنية	من - ١٥١٢٣	من - ١٥١٢٣
١٥ - مكتبة العرونة	المكتبة الأعلى من - ٢٩١	المكتبة الأعلى من - ٢٩١
١٦ - عبد الله حسن الرصاصي	من - ٢٧	من - ٢٧
١٧ - المكتبة الحديثة	المكتبة الوطنية من - ٢٥	المكتبة الوطنية من - ٢٥
١٨ - أحمد سعيد حداد	شارع عبد المكي ميدان التحرير	شارع عبد المكي ميدان التحرير
١٩ - مكتبة دار العلم	من - ٨٢	من - ٨٢
٢٠ - علي ابراهيم شمر	من - ١٧١٢	من - ١٧١٢
٢١ - عذاب قاسم العزري	من - ٩٣٦	من - ٩٣٦
٢٢ - مكتبة سنتر	من - ٨٤٥	من - ٨٤٥
٢٣ - عبد الله عام محمد	لعمري	لعمري
٢٤ - مكتب توحيد المطبوعات العربية	١٥ ش كنعان من - ب ٢٠٥٥	١٥ ش كنعان من - ب ٢٠٥٥
٢٥ - المكتب التجاري الترمي		
٢٦ - مكتبة مصر		
٢٧ - مكتبة المير		
٢٨ - زكي جرجس طليوس	من - رقم ١٥٥	من - رقم ١٥٥
٢٩ - ابراهيم عبد القوم	مكة القوم من - ١٨٠	مكة القوم من - ١٨٠
٣٠ - عيسى الله محمود دويره	مكة دويره من - ٢١	مكة دويره من - ٢١
٣١ - عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية من - ١١٥	المكتبة الوطنية من - ١١٥
٣٢ - مصطفى صالح	من - ١١	من - ١١

اسمار تيم للجمهور في الوثائق العربية

صوريا ٥٥ قرش - سوري - لبنان ٥٥ قرش - ليبيا - الأردن ٥٥ فلس - العراق ٥٥ فلس - الكويت ٧٥ فلس - السودان ٥٥ فلس - ليبيا ٥٥ فلس - قطر ٧٥ درهم - البحرين ٧٥ فلس - عُمان ١٠٠ سنت - أومس ١١١١ - بنما - أسرة ٥٥ سنت - الجزائر ٥٥ درهم

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

تقدم أحدث ما صدر في سلسلة
المكتبة الثقافية

• تطور الفكر السياسي

د. أبو البزير علي المتيت

• علوم المسلمين أساس التقدم العلمي الحديث

جلال

من النسخة ٥

تحت إشراف الدكتور شكرى محمد عياد

تطلب من مكتبات القومية للتوزيع بفروع